بوجدرة

رواية



تيميمون

منشورات ANEP

رشيد بوجدرة

تيميمون

روايـــــــة

ANEP

تيميمون

الكتاب: تيميمون (رواية)

المؤلف: رشيد بوجدرة

الغلاف: بديعة ميدات

الناشر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)

28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر

الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213

الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213

e-mail: dcpa@anep.com.dz

الطبعة الأولى 1994

الطبعة الثانية 2002

ISBN: 9961-756-02-9

Dépôt - légal: 818-2002

منشورات ANEP

إقامة النجاح ـ 11، شارع الأخوة بوعدو

بئرمراد رائس ـ الجزائر

الهاتف: 58 95 44 21 213

الفاكس: 65 95 44 21 213

I

يتساقط الليل مهياراً. فجأة يتسرب إلى داخل الحافلة بطريقة خافتة رويداً رويداً، هكذا كاللص يتلصص. الساعة تشير إلى السادسة مساء. أصبح كل شيء أسود، الآن. في مقدمة الحافلة هنالك مصباح ضعيف، يضيء المكان بطريقة شحيحة. المصباح الأمامي مزرورق اللون، قليل الاشعاع. أحاول سياقة الحافلة بطريقة حذرة وهي تسير على درب ضيق وكأن أرضيته عبارة عن صفيحة حديدية مرملة. المسافرون يتقوقعون على أنفسهم. كل واحد حسب طريقته. وكل طريقة تختلف عن الأخرى. لم يعد ممكناً رؤية أي شيء نظراً لزخامة الليل الذي انقض على الصحراء كلها. بدأ الراكبون يتناومون الواحد تلو الآخر. مصابيح الحافلة البيضاء تضوّي الفضاء الذي يلتهم المركبة الهرمة مرة ويسترجعها مرة أخرى. فتبرز كما هي بأحجامها المتورمة وهندستها القديمة وأشكالها المبالغ فيها، وكأنها صنعت في أزمنة غابرة. أما المحرك فكان على عكس ذلك، هافت الصوت، حريري الحس، رهيف الخشخشة

وكأن أجزاءه مصنوعة كلها من مادة القطيفة أو القطن. إلا أنه كان يئن ويصر من حين لآخر، كلما اعترضت دواليب الحافلة صفيحة غليظة من الرمل كانت الرياح قد غيرت مكانها.

أحد الركاب تنتابه فجأة نوبة سعال. وفوراً يقلده بعض المسافرين الآخرين وكأنهم يتلوعون تحت سطوة هذا الصمت الرهيب الذي اجتاح الحافلة، وتحت سطوة كل هذه الرمال التي تسربت إلى ثيابهم وأنوفهم وأحلاقهم وصدورهم. الصحراء انمحت الآن. يبقى البرد القارس والجو الرخو الذي يسود داخل الحافلة، لا يمكن لأحد بلورته بدقة ووضوح. ولعله خليط من بقايا ورواسب أشياء وأمور لا يمكن ضبطها وكأنها نصف ممحية ونصف منسية. أي كل هذه الأمور والأشياء شبه المهملة والمتكونة، أساساً، من كل هذه الوقائع والأحداث التي تعاقبت أثناء هذا النهار المكرس للسفر عبر الصحراء. نهار بأكمله يمر هكذا بوقفاته واكتشافاته وثرثراته وتوتراته ونوبات الضحك وخيباته وروائحه المختلفة من تمر مسحوق وأكل متبول وقشور البرتقال الفائحة.

ومن حين لآخر تزرورق نوافذ الحافلة عند مرور أية عربة ثم تتلون بألوان أخرى وتمر من الأزرق القاتم إلى البنفسجي إلى الباذنجاني إلى الأسود. ولكن كل هذا لا يدوم إلا برهة من الزمن: نوع من الوميض المبهر أو شيء ما فسفوري يمر بسرعة البرق. الحافلة تشق طريقها

الصحراوي هكذا وكأنها أصبحت عرضة للرياح المتعاكسة وهي ـ الرياح ـ عبارة عن عصافير ضخمة ونهمة تحلق مترنمة بطريقة بهلوانية، فتنبع من خلال الأجنة الصحراوية المشبَعة بروائح الفواكه الطازجة والمتساقطة تحت الأشجار، فتتعفن وتفوح في كل الأرجاء، داخل البساتين الصغيرة. وأثناء السفر تتلطخ نوافذ العربة بمادة رملية تترك بصمات رهيبة على الزجاج، وسرعان ما تتحول إلى شبه أخاديد وحلية في شكل نصيلات حازة وملوثة بالرمال. وهي تتشابه مع شجات متعرجة، متلوية لكنها لطيفة في الأصل. فكانت كل هذه الرسومات المخططة تتراقص على سطح زجاج هذه الحافلة الهرمة التي اشتريتها منذ بضع سنوات في مدينة جنيف، بسعر رخيص إلى حد مذهل.

وسادني آنذاك انطباع جعلني أفكر أن البائع أخذته الشفقة عليّ إلى حد أنه أراد إعادة المبلغ المالي المزري إلي بعد أن دفعته له. وكأن الرجل قد تذنب وقلق لهذه الصفقة فرفض فجأة بيع الحافلة. وكأن ضميره قد وبخه نظراً لقدم العربة كذلك. فحاولت طمأنته وصرحت له عن قدراتي الهائلة في ميدان الميكانيك ووعدته بتصليح المحرك والإطار ذي الشكل المربع والمكور في آن واحد من طراز الأربعينات. كانت الحافلة تملك شكلاً شبه عسكري، فجاءت في قالب صلب على نمط ما كان ينتج من سيارات في تلك الفترة.

وبعد ساعات قليلة لاحقني البائع إلى حانة حيث كنت

أحتفل، لوحدي، بشراء هذه الحافلة. ومن جديد طلب مني إلغاء العقد الذي قضينا في كتابته وقتاً طويلاً. زعم الرجل، مكرراً نفسه، إنَّ السيارة الخربة لا تساوي خردلة وأنه من العار عليه بيعها لشخص مثلي، طيب المزاج وساذج العقل. رفضت كلامه هذا وقدمت له كأساً من الفودكا.

هكذا، بدأنا نشرب الكأس تلو الأخرى مدة ساعات طويلة. وسرعان ما نسي نديمي لماذا جاء إلى هذه الحانة يلاحقني فيها ويطالبني بفسخ العقد. سكرنا في الحانة السويسرية سكرة رهيبة فتصاحبنا وتعانقنا وهنأنا بعضنا بعضاً. ولكن بعد مضي ساعة من هذا الوفاق والاتفاق والمحبة والتعاطف، أخذ نديمي يعيد الكرة طالباً مني إعادة الحافلة إليه، متذرعاً بأعذار صبيانية. وقال إنه متعلّق كثيراً بآلته القديمة وهو وفي لها مدى الحياة وأنه سيتلوع حنيناً لها إذا ما باعها إلي. ثم استطرد: «لا أقدر على مفارقتها بعد ربع قرن من الخدمات الرائعة والنبيلة. . . . هذا عيب. هذه سفاهة وغدر. . . غير ممكن بيعها فقط لأنها شاخت وتعطبت. . . مستحيل. . . ».

سقيته كأس فودكا أخرى ثم ثانية ثم ثالثة. بعدما شرب كأسه السادسة، صافحني بطريقة رسمية واحتفالية في آن، قائلاً: «مبروك. القضية منتهية والصفقة نهائية». أهداني، بدوره، خمس كؤوس من الفودكا الرفيعة، فدامت جلسة السكر هذه كل الليل، لم أتوقف أثناءها عن مراقبة وجهي في مختلف المرايا التي كانت تغلف جدران الحانة. كنت

بالمرصاد لنفسي حتى لا أفقد كرامتي وشهامتي تحت تأثير الخمر. ذلك أنني إذا كنت أحب شرب الخمور كثيراً، فإنني لا أسمح لنفسي، مهما كانت الظروف، تجاوز حدود اللياقة تحت تأثير السكر. وعند طلوع الفجر طلبْ مني نديمي أن أعده بعدم أخذ الحافلة ونقلها إلى بلدي. وعدته، كاذباً، وساعدني السكر على هذا، فطمأنته على أن أترك الحافلة في جنيف. لكن رفضت أن يعيد لي ثمنها وقد قرر الرجل تقديمها إلي مجاناً.

الآن أعود بسرعة إلى السياقة وإلى هذا الطريق الصحراوي الضيق والوعر. أعود إلى المسافرين الذين أقودهم منذ بضعة أيام من أقصى الصحراء إلى أقصاها الآخر. لقد قضيت عدة أيام برفقتهم وكأنني أعرفهم كلهم. واحداً، واحداً. ليس فقط، أعرفهم بالتفصيل، بل أعرف مشاريعهم واستيهاماتهم وحياتهم كذلك. بالجملة والتفصيل. عليَّ أن أبقى واعياً وأنا أقود الحافلة العتيقة التي اشتريتها في سويسرا. أبقى واعياً كما بقيت واعياً يومها في تلك الحانة أشرب وأسكر بصحبة صاحب الحافلة الأول. لا يفتىء الرمل يرش نوافذ العربة فيملىء فمي ومنخريَّ.

لقد داهمتني ذكريات تلك الجلسة في الحانة السويسرية حيث ثملنا أنا وبائع الآلية وتحدثنا عدة مرات بين أخذ ورد حول شراء وبيع هذه الحافلة التي أقود الآن من خلال الدرب الصحراوي الوعر. نسيت نفسي وقد غمرتني الذكريات المضحكة بالنسبة للصفقة المشهودة. أقود الحافلة

من خلال الليل العاتم فاسترجع ذهني. لكن ذلك الخوف المتأصل في أحشائي، دائماً ودوماً، ما زال يقلقني وينغص عليَّ أيامي. أسلك مسلكي في الظلام الحالك وبدايا تنضّان عرقاً دبقاً كما هي العادة وذلك رغم الصقيع الصحراوي الذي يسود داخل الحافلة. رفضت من البداية وضع المكيف الهوائي ظناً مني أنه غير لائق واصطناعي. لذا أحمل داخل الصندوق الخلفي كمية هائلة من البرانيس الوبرية والأكلمة الصوفية.

لقد لقبت حافلتي هذه بلقب «الشطط» وكان ذلك أثناء سكرة أخرى في إحدى حانات الجزائر العاصمة. لا زال الخوف يداهمني، ينقض عليَّ ويمزق أحشائي، ينخرها. لأنه رهيب. لا يتركني أبداً. أحاول مقاومته بكؤوس الفودكا وبجولاتي عبر أكبر وأنأى صحراء في العالم. أشعر وكأن نبضات قلبي تنبض على وتيرة غير عادية. منذ متى وأنا على هذه الحالة؟ منذ البداية ومنذ الأبد. هل يعود هذا إلى فترة الطفولة عندما كان أبي يضربني ضرباً مبرحاً؟ لعله كذلك... كما لا يتركني ذلك الشعور الغريب عندما أقود الحافلة عبر الفيافي الرملية. أفقد حسي ومعنى العالم وكل حواف جسمي.

من حين إلى آخر، تأخذني نشوة وجدية وذهولية. كالغبطة اللامحدودة. «كالجذبة» الصوفية. لكنني منذ الطفولة أهرب دائماً من شيء ما. أو بالأحرى أحاول ذلك. وهكذا بدأت أدمن الكحول ولم أتجاوز الخامسة

عشرة والنصف من عمري. ثم تعلقت بقيادة الطائرات الصغيرة في نادي الطيران منذ السادسة عشرة. ثم قيادة الطائرات الحربية في سن العشرين. ثم سياقة الحافلات العابرة للصحراء منذ الثلاثين. الآن أصبح عمري أربعين عاماً، على ما أظن... السن الذي أنجبني فيه أبي... نفس السن، أقود الحافلة وفي فمي مذاق الرمل والعدم وانعدام المعنى والكوارث، عندما تقتحمني الغبطة وكأنها مصقولة، قاطعة وشفافة. ألاحظ بعض الآثار الرملية والمتخاثرة تتطاول على شكل دويرات رائعة، من أعلى إلى فوق على سطحية النوافذ، فتخلف انعكاسات الكثبان الرملية والزعفرانية اللون التي تنبثق من حين لآخر من العدم الليلي بفضل مصابيح الحافلة البيضائية الإشعاع.

لقد غادرت الجزائر العاصمة منذ أيام قليلة فقط. شيء ما يفتت شراييني. الصحراء تحوط بالحافلة من كل الجهات وكأنها عربسة لا يمكن وضعها داخل رموز رائعة وممضة في آن. ودائماً الصحراء المنتشرة حولنا ورغم الظلام الحالك، فهي مركز الشبق والدوار والحضر والكرب، وإذا جاء الليل يتلون الأفق بلون ما بين البرتقالي والأصفر. رغم جفاف الجو المرمل، أشعر أنني أحمل على متن الحافلة خليطاً من الأقدار الإنسانية تثير الشفقة في نفسي. تلك الحافلة ذات الإطار المتهرس والمحرك الرائع، التي لا تفتيء تشق طريقها بطريقة متعننة، متشعبة ومبهمة كل الإبهام: على شكل نوع من الثبات الرهيب، المخيف،

الجادع والخوؤن. رغم إن «شطط» تترك في نفس المسافرين، انطباعاً رائعاً وشعوراً رهيباً يوحيان لهم بأنها قادرة على الطيران والتحليق فوق الكرة الأرضية. وهكذا تستأنف الحافلة سيرها بين سرعة جنونية وثبات رهيب يعطيانها صبغة حيوانية صاعقة وخاماً في نفس الوقت. تس-أنف الحافلة إذن مسيرتها من خلال هذه الصحراء المتكونة من تراكمات حجرية غريبة وكثبان رملية رهيبة وجبال نثة وهشة وأنقاض متراكمة ومتراكبة، تملأ الفضاء وتعمره إلى حد خلق نوع من الهيجان الجيولوجي فيحول الصحراء إلى شيء ملموس، خام وأساسي.

الحافلة، وهي تسير في الظلام، توحي بأنها تتسرب داخل الظواهر المُبهمة والعناصر المعدنية التي تحمل احتراق الكون إلى حدود الإفراط والجنون، بينما أغلبية المسافرين نائمين بعد أن سقطوا فجأة في نعاس عميق، ما عدا البعض ومن بينهم تلك الفتاة الجالسة وراء معقدي. وهي لا تنام أبداً ولا تغلق لها عين. الفتاة رائعة الجمال، بنفسجية العينين، طويلة القامة، رهيفة الهندام، مسطحة الصدر، قصيرة الشعر مما يجعل عيناها أكبر مما هي عليه، بطريقة عجيبة. فتظهر هكذا وكأنها صبي أو غلام أو فحل فحيل. لم أتمكن إلى حد الآن من مواجهة نظرتها الحادة، الساطعة والمنيرة، رغم أنها لم تفتىء تراقبني من خلال المرآة الارتدادية، في صمت رهيب ومتكبر.

ورغم إطارها البالي، فإن الحافلة توحي لي بأنها تدفع

نفسها دفعاً من خلال هذه المادة العمياء والصلبة التي يتكون منها الليل. ذلك لأن المحرك، عكس الإطار، قد أعيد تصليحه واستبدلت كل قطع الغيار الأساسية فيه، فأصبح نموذجاً رائعاً للدقة والسرعة. وقمت أنا بنفسي بكل هذه العمليات الدقيقة وأدخلت عليه تقنيات رهيبة زادت في قدراته الهائلة. ويجعل هذا التناقض بين الإطار المهترىء والمحرك الجديد، الكثير من الناس يخطئون في أمرها، حتى إذا ما حاول أحدهم أن يتجاوز «شطط» فشل بسرعة، فشلاً ذريعاً فيعترف السائقون آنذاك على قدرات هذه الحافلة لأنها تعطي الإحساس لمن تسابق معها بأنها نموذج رائع في السرعة وكذلك نموذج رائع في الثبات. فهي عبارة عن مفهوم مبهم قادر على أن يسير بسرعة فائقة وقادر كذلك أن يتباطأ في السير، وذلك حسب إرادة السائق، فقط.

البخار يطلي نوافذ الحافلة بزخامة وغزارة ثم يختلط بدخان السجائر المتراكم داخل الآلية. ذلك أن بعض المسافرين أخذوا في التدخين رغم وجود لافتة تطالب بإلحاح على عدم التدخين. وبما أن الضوء المتساقط من المصباح الصغير كان شحيحاً، فيظهر لي أن المدخنين يدخنون بطريقة عمياء. أما في الخارج فكانت الحافلة تتجاوز كل الأشياء الأخرى: قوافل الجمال وهي تسير ببطء؛ آلات التنقيب الضخمة وهي عائدة إلى قواعدها؛ مجرد أشباح بعض المشاة الصاعدين والمتسلقين بعض الكثبان لاختصار الطريق؛ أشجار النخيل المطلسة

بانعكاسات ضوئية متتالية؛ آثار صلصلية على حافة الطريق وكأنها بصمات ضخمة، شخمة اللون، إلخ. . . وكانت كل هذه الأشياء وكل هؤلاء الأشخاص الذين يعترضون سبيل الحافلة «شطط»؛ يتضخمون تحت تأثير المصابيع الآلية التي تبعث ضوءاً أبيض ساطعاً. الليل بارد. لقد توغل الآن في كل شيء وبدأ في تزييف الأشياء وتحريفها.

أشعر بأن المسافرين قد بدأوا يشعرون بالقلق بما فيهم هؤلاء الذين سقطوا في نوم خفيف ومضن في آخر الأمر. أما صرّاء فكنت أشعر بها تراقبني من الخلف فيما أنا أقود العربة جالساً في مقعدي. فهي لا تنام ولا تغفو. لست أدري بالضبط إذا كان صرّاء هو اسمها. أحس، إذن، أنها تراقبني بعينيها الثاقبتين القادرتين على فسخ حزمات المصابيح وكأنها طليت بالجير الأبيض. كلما أدرك أنها ورائي، صامتة، لابدة، لا حراك فيها، أفقد سعتي وأرتبك ارتباكاً لم أتعود عليه من ذي قبل. آنذاك يعتريني الخجل وتنهال عليّ رغبة رهيبة في تناول كأس فودكا مثلجة. لكن أرغم نفسي على مقاومة مثل هذه الرغبة فأرفضها. أي أنني أرفض توقيف الحافلة والنزول منها وفتح الصندوق الخلفي الذي يحتوي على ثلاجة ضخمة حيث زجاجات الفودكا المصففة تصفيفاً محكماً حتى تتثلج بطريقة محكمة، كذلك.

أحدس وكأن الفتاة الرائعة الجمال تعلم، عن فطرة، أنني في حاجة إلى شرب كأس فودكا فتهزأ بي وتضحك عليّ. لقد حاولت أثناء عشاء البارحة أن أقص عليها حياتي

وأفسر لها، بنفس واحد، لماذا امتهنت في البداية قيادة الطائرات الحربية وكيف طردت من الجيش وكيف أصبحت أشتغل كدليل في الصحراء ولماذا أقود ما يقارب الخمسين سائحاً على متن شاحنتي الملقبة «شطط» عدة مرات في السنة لزيارة الصحراء، تلك الصحراء التي تبهرني وتخيفني في آن. قلت هذه الجمل بسرعة وأنا في حالة مضطربة ومحمومة. وما كان منها إلا أن تثاءبت؛ فهمت فوراً أنها تستهزء بي وأن أمري لا يهمها في شيء. فهمت كذلك أنها فتاة تستعمل الوقاحة كأسلوب عيش.

بهرني فيها ذلك الجسم المرن والهندام المهفهف والبشرة المصقولة والصدر المسطح والأعين البنفسجية وقد تحول لونها إلى الأزرق الفاتر بعد أن شربت برفقتي كأس فودكا فريداً. انبهرت إذن بكل هذا الجمال وعلى وجه الخصوص بمظهرها الرجولي...

كانت صرّاء تنظر للناس وهم يثرثرون ويتحركون ويمزحون ويقلدون المهرجين من النمط الحزين أو من النمط المرح، على حد سواء. لكنها لا تنبس بكلمة واحدة وحتى بحرف واحد. وإذا طرأ ذلك عرضة جاءت جملها اصطناعية ومركبة بطريقة آلية. ملؤها الابتذال والتكلف والسأم والوقاحة. فيصمت هكذا من خاطبها ويتعقد على الفور. ولم يكن هذا التصرف يدل على دلالها وتغنجها. كان الأمر أسوأ من ذلك. شيء لا يمكن ضبطه بدقة، شي غير ملموس. شيء يحمل في خلفياته نوعاً من الخوف

الممزوج بثقة مفرطة في النفس. نوع من السكينة الهشة، والفتاة لم تبلغ العشرين عاماً بعد.

أصبحت قائداً في الطيران العسكري حتى أستفز أبي وقد قرر هو الآخر أن يجعل مني مهندساً مختصاً في الصناعات الغذائية لأنه أنجز مصنعاً لتجفيف الطماطم عند بلوغي الثامنة عشرة. ولأنتقم كذلك من بنات وأولاد الذين كنت أتفرج عليهم وهم يتمرنون على الطيران، مستعملين في ذلك طائرات صغيرة وهي ملك نادي الطيران التابع لمدينة قسنطينة. لم تترك لي صرّاء المجال لاستئناف قصتي وأسرعت بالنهوض متبخترة وهي تعتذر عن عدم الإنصات بنوع من التكلف والمبالغة والسخرية.

كانت صرّاء، وهل هذا هو اسمها يا ترى، فتاة كتومة، قليلة الكلام، منطوية على نفسها، صعبة المعاشرة. وكأنها غائبة عن الوجود، لا غبار عليها، عديمة التأثر، متراخية، متكاسلة. بانت لي صرّاء كالشخص الذي لا يهمه أمر ولا يتكلف في أمر. أو، بالأحرى، كانت الفتاة ذات شواذ وأشجان وانحرافات. وكان الناس من حولها وكأنهم يسبحون في تفاهتهم وشهواتهم بالنسبة لأنوثتها الغريبة والممزوجة بشيء من الرجولة، خاصة وأن السواح الذين كنت أقودهم في زيارة الصحراء، كان قد أصابهم مس من الهلع والدهشة والتخدر، أمام جمال الصحراء وروعتها.

أما صرّاء فقد امتزجت بالمناخ الصحراوي وتوغلت فيه إلى حد عجيب. فتزيدها رونقاً وجمالاً وحيوية وجاذبية،

كلما توغلنا داخل الصحراء، أو توقفنا لزيارة واحة من الواحات، أو قررنا أن نحط في محطة ما لقضاء الليل في الهواء الطلق. كانت علاقتها بالصحراء تضيء عينيها وتغير لونهما من الأزرق الفاتر إلى الأزرق الغامق. من البنفسجي إلى الخزامي. وكأنها قادرة على اجتذاب الناس والآثار والقصور البربرية والواحات وحتى القطط التي كنا نعترضها في بساتين الأنزال عندما نقضي الليل فيها. ورغم هذا كله، كانت الفتاة منطوية على نفسها، معزولة عن الآخرين، محاولة دائماً وضع المسافات الكبيرة، بينها وبين السواح. لكنها ليست جفولة ولا شرسة بل تظهر وكأنها متوحشة، متنافرة ومخوافة عن فطرة. وكأنها ترفض وهي في هذا العمر، أن تسقط في مطبة العلاقات الإنسانية بما تحمله من مشاكل وخصومات وأزماتَ. وما إن تستقر في مقعدها داخل الحافلة، حتى تتقوقع على نفسها، حذرة، مستعدة للتصدي لأي طارىء. ثم يموت كل شيء فيها، ما عدا عينيها المفتوحتين على مصراعيهما تحدقان هكذا في كل ما حولها من ناس وكلام الناس ومحاولاتهم للتقرب إليها مستعملين الحيلة مرة والنية الصافية مرة. لذا كانت صرّاء غير قادرة على الغضب أو نفاذ الصبر أو فقدان الجأش.

أما عن أبي الذي كان يريد مني تسيير معمل تجفيف الطماطم، فلم يؤثر هذا على صرّاء بالمرذ رلم يهمها أمر علاقتي به أبداً. لم أحاول الحديث حول هذا الموضوع أكثر من ذلك، فصمت. لم أضف إن أبي هذا كان ثرياً

جداً ومسفاراً كبيراً وأنانياً رهيباً. وكأنه قد أصيب بمرض التنقل والترحال. فمن قارة إلى أخرى ومن امرأة إلى أخرى ومن صفقة تجارية إلى أخرى. وجاء رد الفعل من جهتي ضد هذه التصرفات في شكل استفزازي ومشاكس له، فأصبحت طياراً عسكرياً وخنثى فاترة جنسياً. وبعد سنوات طردت من الجيش لأنني اختلست في يوم من الأيام طائرة ميغ 21 وطرت بها إلى مدينة بروكسيل حيث قضيت ليلة كاملة في شرب البيرة حتى ثملت. وقد تعودت على مثل هذه التصرفات، فكنت بين نزوة وشطحة أعيد الكرة، فأزور هكذا حانات العالم كله حتى نفذ صبر المسؤولين في الجيش فطردوني شر طردة. وقلما زرت مدينة إلّا وسكرت في أكبر حاناتها وأرسلت جواباً لأبي في شكل بطاقة بريدية، كما كان يفعل هو كذلك. ذلك أن الرجل تعود على إرسال بطاقات بريدية أثناء أسفاره وكأنه يريد هكها تغطية غياباته وإجباري، من بعيد، على أن أدرس الهندسة ومراقبة أمي المسكينة ووضع العسة عليها.

أما أمي فكانت على عكس ذلك. كانت طيبة وساذجة إلى حد الإفراط وغير قادرة على فهم استراتيجية البطاقات البريدية التي خططها لها زوجها. وكانت أمي، هي الأخرى وبطريقتها الخاصة، غائبة عن الوجود وقد غلبها أبي وتغلب عليها بمبادراته الغريبة ومناوراته الكرهة، فباتت مصدومة، مسمرة في منزلها، مترقبة عودة رب بيتها أياماً وأسابيع وأشهراً طويلة. كما كانت أمي تتوهم أن أبيها سيعود إليها

في يوم من الأيام، وقد توفي الرجل منذ سوات عديدة أثناء عاصفة ثلجية أتلفت القاطرة التي كان يقودها في نواحي مدينة سطيف.

كانت أمي تملك مزاجاً وهمياً وخيالياً، لا علاقة له بالواقع الملموس. دائماً صامتة. دائماً ساهية. دائماً مزروعة في غربتها وغرابتها، فلا تبيّن شيئاً ولا يمكن قراءة أي شيء من خلال نظرتها الخالية من كل تعبير ومن كل عبرة. لكنها كانت تحمل على وجهها سمات المسالمة والمحايدة ونوعاً من الإحساس المشبّع بالعزلة والطهارة والوفاق والإنغلاق وكأن الزمن قد توقف نهائياً بالنسبة لها وذلك بقرار من زوجها المغياب.

وكانت علاقتها بالزمن غريبة وطريفة في آن واحد، فلا يمكن لأي إنسان تحملها واستيعابها لأنها توحي بزمن ليس أملس ولا صقيلاً بل خشناً وجعداً يذكرني في مادة الكريب الصيني والزيت المستعمل لتشحيم آلات الخياطة التي كانت أمي تملك منها العديد، بمختلف أنواعها Borletti, R.K.A Necchi, Singer Schneider, P.F.A إلخ...) وكأنما (أمي) أصبحت مشبعة بهذه الروائح الزيتية إلى حد أنني كنت أظن وأنا طفل، بأنها تفرزها من خلال بشرتها أو من خلال مسامها. كان الصمت إذن هو طريقة التعبير التي تستعملها أمي، أساساً، فيكسوها نوع من الكآبة الأبدية والسميكة.

أتذكر أصياف مراهقتي حيث يتساقط الليل مدراراً على التوتة الضخمة، فيحرك أغصانها الزاحفة نحو النوافذ

المغلوقة زحفاً خافتاً وهامساً، عند ذلك ينهار العالم المادي من حوالي وكأنه قد سقط في غيبوبة عميقة، تدريجياً، دون أن يتفطن له الإنسان.

وتشعبت الأمور من أول وهلة بالنسبة لي وتعقدت إلى حد أنني شعرت، منذ المراهقة الأولى، بالضياع والهلاك من خلال هذه العائلة وهذه المدينة بمتاهاتها ومنعرجاتها وأزقتها التي تتجلى لي من خلال نافذة غرفتي وقد كنت آنذاك تلميذاً بثانوية Duverrier بقسنطينة، وكان ذلك من خلال التوتة الضخمة والنهمة والغزيرة أغصانها. كانت المدينة ترتسم حجماً ضخماً ومتورماً يتساقط تدريجياً من خلال مستويات مختلفة ومتواجدة ما بين القصبة والصخرة المبنية عليها مدينة قسنطينة الرائعة. وكانت القصبة هذه قريبة جداً من منزلنا، فألاحظ أنها تتخرب يوماً بعد يوم وتتحتت وتتفتت كذلك. وقد أصبحت تتماوت رويداً رويداً... أعود إلى الحافلة وإلى السياقة وإلى الصحراء. كل هذه الذكريات أردتني كئيباً فشعرت بحاجة ملحة إلى شرب كأس فودكا مصقعة. أفتح المذياع لأنسى عطشي وأستمع إلى الأخبار:

اغتيل الأستاذ ابن سعيد هذا الصباح على الساعة الثامنة بمنزله من طرف عصابة إرهابية من الإسلاميين، وقد حدث ذلك بمرآى من ابنته البالغة عشرين عاماً.

أغلقت المذياع بسرعة. اشتقت إلى كأس فودكا مصقعة. نزت يداي عرقاً. أحسست بأن صرّاء أخذت

تتململ وتتحرك كثيراً وهي متقوقعة على مقعدها. لقد استمعت إلى الخبر المهول الذي جاء في مقدمة النشرة. ألقيت نظرة مختلسة نحوها، من خلال المرآة الارتدادية. رأيت أن عينيها تفيضان دموعاً حارة. التقت نظرتانا. لأول مرة أرى صرّاء وقد غمرتها إنسانيتها، فزادتها جمالاً على جمالها الرائع.

كانت الدموع تتدفق وتنبجس بغزارة وتبلل وجهها بطريقة مؤثرة ورهيبة، كما غيرت هذه الدموع لون عينيها فأصبح ازرقاقهما لماعاً. وقد حرت في أمر هذه الدموع لأنني كنت أظن أن صرّاء غير قادرة على البكاء أو التعبير عن أي إحساس، فبهرني هذا التناقض. استأنفت الدموع تتدفق على وجه صرّاء. وهل هذا هو اسمها يا ترى؟

ولعل رد الفعل هذا النابع من أحشائي مقروناً بعلاقتي بها. وقد كانت صعبة وعويصة. خاصة وأنني فهمت أن داخلها يخالف مظهرها تماماً. أما الدموع فلا زالت تسيل سيلاً مدراراً فتتعلق القطرات على وجنتيها ومقلتيها وجفنيها وقد بقي بعضها متدلياً على مستوى هذه البقعة المركزية من ذقنها، وذلك بسبب تلك الصفة التي تتصف بها السوائل.

فكيف يمكن نعتها يا ترى؟

II

منذ أن رأيت صرّاء لأول وهلة فهمت أنها هي المرأة الأولى التي روعتني إلى هذا الحد. لم أهتم قبلها بالنساء أبداً وعمري الآن يناهز الأربعين. كنت أتهرب منهن وأتفادى أية خلوة معهن. كنت مولعاً بالطائرات والرفاق والفودكا وكان هذا يكفيني ويملأ حياتي أكثر من اللازم. كنت كذلك، أهوى المطالعة وأقرأ بنهم الكثير من الكتب بأصنافها المختلفة، فيهزأ منّي أصدقائي. أما النساء فكنت أخاف منهن. أو بالأحرى، كنت أشعر نحوهن بإحساس غامض وهو مزيج من الخشية والتذنيب والإعاقة. كان صديقي كمال رايس على عكسي يحبهن كثيراً ويسخر مني قائلاً: «أنت معقد».

كنا آنذاك في بداية المراهقة وكان كلامه هذا لا يشغل بالي بل يضحكني فأرد عليه بنفس الطريقة: «أفضل أن أكون خنثى ومعقد من أن أتلحمس على ثديي سليمة مالكي المنتفخين، الرخويين... إني أعلم أنك ترافقها كل مساء سبت إلى سينما Le Colisée وتغتنم الفرصة وتلامسها لمساً

وتجسها جساً... وهكذا تفوتك مشاهدة الفيلم... أنت مشغول بأمور أخرى آنذاك... لكن خسارة، أنت تضيع الكثير بعدم مشاهدتك الأفلام... أما اللحمة والشحمة فأتركها لك... هذا مبالغ فيه... وما تسميه ثدياً فهو مجرد غدة ضرعية... لا أكثر ولا أقل».

وفي يوم من الأيام، أجبرني على مرافقته إلى ماخور كان من زبائنه المقربين والمعروفين. قدَّم إلي كمال رايس عدة بنات جميلات لا زلن في سن المراهقة. لكنني فضلت طلب زجاجة بيرة والاستماع إلى الجوق الأندلسي وهو مكون عادة من يهود جلهم من العميان. فكاد كمال رايس أن يجن. فقلت وهو على هذه الحالة:

«خلّيك يا كمال رايس من النساء ودير كما أنا.... أشرب قرعة بيرة باردة ومصقعة... قرعة بيرة تسوى ألف امرأة... أنا ما أفهمت والو في هاذ الحكايات... النساء... النساء. إنتم ديمة ملهوفين... ديمة لساناتكم برة... ما تهدرو غير عليهم... بركان يا خو. أنا زبي عفتُ، جاني حاجة غريبة... مرة واقف، مرة مرخي... يتلون حسب الزمان... مرة قهوي مرة أحمر... أما حشون النساء... فلا تحدث. إسمع يا معلم جيبلي قرعة بيرة Lux 33. وجيب وحدة لسي كمال رايس... هكذا ما يروحش يزني مع هذوك المغبونات... وزيد على هذا يروح يسلكهم. أخي مهبول. جبنا قرعة بيرة باردة يا معلم... اسمع يا كمال رايس ملوف قسنطينة حاجة هايلة

واليهود يعرفولو يا خو. بصح قلبي علاشهم عميان؟ علاش؟،،،».

ثم أضفت أشياء أخرى وقد أخذ مني السكر مأخذه:

«ما فهمت ولو في قصص الجنس هذه... امتاع الراجل يضحك وامتاع المرأة يبكي... متاع الراجل كالمصرانة الباسة... نحب نتقية. ما تحشمش كِتورّي قلا ويك للنساء؟ وامتاع النساء كيف... يضحك ويبكي...».

وبعد شرب القنينة السادسة أصبحت أهذي هذياناً مبرحاً. اغتنم كمال رايس هذه الفرصة وصعد إلى الطابق الأول مع إحدى المومسات الصغيرات وكانت رائعة الجمال. شعرت بنوع من الغيرة يحزني. لم أفهم لماذا. سكرت وثملت وبقيت وحدي أتلعثم وأهذي وأتمتم: «هكذا يا كمال رايس تجيبني لهاذ البلاصة وتخليني وحدي راس راس أنا والقرعة... عيب عليك... قول ما بغيت... علا بالي ما نيش راجل وانعيف النساء... نخاف من فرجهم... حاجة غريبة لحم وشحم وزغب كالجرح المشقوق بالموس...»

الأستاذ ابن سعيد يغتال هذا الصباح في بيته، على الساعة الثامنة والنصف بمشهد من ابنته البكر...

«... خلوطة فرج المرأة... جرح... كحبة الجوز الكبيرة... وأنت يا سي كمال رايس عملي عيطة وشهود على ذبيحة قنفود... خلينا من النساء ورواح تشرب

معاية... ما تخلنيش وحدي... نسكر ونزيد نسكر... هذا هو المشكل... الجنس. عند الرجال وإلا عند النساء: كيف كيف... هذا هو جرح الإنسانية... علاش الإنسان مخلوق هكذا... علاش داير هكذا؟...».

ثم رجع كمال رايس، متبختراً، زهواناً، قلت له: «لا تغرنك نفسك لأنك مارست الجنس مع مومس مسكينة. الأفضل أن نعود إلى البيت ونحاول حل المعادلات من الصنف الثالث، على طريقة عمر الخيام، عوض أن نبقى في هذا الماخور... لنذهب إلى منزلي ونتصل بهنري كوهين، فلقد سرق زجاجة فودكا من أبيه... تعالى نشربها في غرفتي... أمي نومها عميق... لأنها تقضي طوال نهارها تشتغل بخياطة الأثواب والملابس رغم الصداع المزمن الذي تعاني منه... «فأجابني: «cosinus Anus, sinus اللي ما ذاقش طعم النساء ما يعرف والو». كان قد سكر هو الآخر خاصة وأنه لا يملك قدرة كبيرة على مقاومة السكر. فأجبته: خسارة عليك إنت شباب وذكي ومخ في الرياضيات... تضيع في شبابك في هذا المكان. يلله انروحو عندي للدار ونفتشو على السبع وعشرين طريقة اللي استعملها عمر الخيام لحل المعادلات من الصنف الثالث ونشرب قرعة الفودكا اللي رايح يجيبهانا هنري كوهين...».

كانت أمي تعمم رأسها بخمار بربري عتيق مرصع بالذهب والفضة كلما داهمها صداعها المزمن، فينقض

عليها عندما تكون في حالة نفسية رديئة. وكان هذا الصداع في الحقيقة مجرد تعلة وهمية لا تقدر أمي على فهمها. وقد ورثت هذا الخمار الملون بألوان رائعة منها الأحمر والبنفسجي والأصفر، عن أمها. فكانت تحافظ عليه بإتقان ورقة ولطف لأنها تريد تركه لإحدى بناتها بعد موتها. وكانت تستعمل هذا الخمار الرائع كحجاب واق، يقيها من الأمراض وخاصة من صداعها المزمن وهمومها النفسية وحرمانها المعهود، هي الزوجة التي تركها زوجها وأهملها، دون أن تجد لهذه المعضلة دليلاً ولا طبيباً ولا حلاً.

كان كمال رايس شاباً رائع الجمال، طويل القامة، أنيق الهندام، يمشي الهوينا ويقرع السماء برأسه وكأنه يحلق في الأجواء. فقلما رأته أنثى إلا وسقطت في فخ حبه. فلا تمتنع عن القصص الغرامية الخرافية ولا من الاغتلام الشبقي الذي يأخذ في التهامها. لكن كمال رايس لا يهمه مثل هذا العشق، إذ أنه كان يفضل ممارسة الجنس مع مومسات أكبر ماخور مدينة قسنطينة. وكنت أشك في أنه كان يرافق البنات اللواتي سقطن في حبه، إلى سينما Le Colisée، لا لشيء سوى لأنه لا يريد مصارحتهن بأنه لا يحبهن بل يشفق عليهن فقط. كذلك كان يفعل مثل هذه الأشياء حتى يكون له رصيد من الشهرة، فتعلم كل أنثى تقطن في المدينة أنه فحل رهيب، قادر على تلبية رغباتهن بلون ضعف أو هوادة. وكانت هذه الشهرة تمثّل بالنسبة إليه عالة رهيبة قد تجاوزته منذ سنوات، فيقلق لها ويتقزز

منها ويرفضها. ولما سقطت جان كوهين، أخت هنري كوهين، في شباك كمال رايس، هددته ومنعت عليه أن يرافقها إلى سينما Le Colisée. فقبل طلبي هذا لأنه جبان نوعاً ما ولأنه كان يعلم أنه إذا فعل هذه الفعلة الشنيعة فسيعاقبنا هنري كوهين ويحرم علينا شرب الفودكا وكان يختلس زجاجاته من أبيه.

كلما اختلينا نحن الثلاثة في غرفتي لشرب الفودكا، كان كمال رايس يحمل ربطة عنق، حمراء اللون لأنه كان يظن أن هذا اللون هو المفضل لدى عائلة كوهين. لم يكن كمال رايس متسيساً كثيراً لكنه كان يحب حباً جماً هذه العائلة.

أما أبي فكان يكرهها لأنها كانت عائلة يهودية وفقيرة ولأن ربها كان شيوعياً وعاملاً بسيطاً في نادي الطيران التابع للمدينة. وكانت كل هذه الأسباب أساسية بالنسبة لأبي. لكنني كنت أتركه يثرثر ولا أجادله في الموضوع لأنني أعلم أنه جبان وغير قادر على الاعتراف بعنصريته إزاء اليهود. خاصة وأنه كان يربطه باليهود الأثرياء رابط أساسي، بالنسبة لأعماله التجارية.

أما أمي فكانت تكن لهذه العائلة اليهودية احتراماً كبيراً وكأنها وهي تتصرف هكذا، تريد فقط الانتقام من زوجها الخليع. فكانت تصاحب يهوديات الحي وتزورهن زيارات عديدة وودودة. كما كانت تود كثيراً رفيقي هنري كوهين فتهديه من حين لآخر مالاً قليلاً وحلويات كثيرة. وكأنها

تريد هكذا أن توازن الأمور لأنها كانت هي نفسها من أصل فقير جداً.

هكذا وأنا أقود «شطط» الحافلة الضخمة التي كنت أفتخر بمحركها الرائع وأتضايق من إطارها الخارجي، القديم المنظر والقبيح الشكل، كانت تداهمني الذكريات النابعة من طفولتي ومراهقتي. فكم قضينا من أيام وليالٍ، كمال رايس وهنري كوهين وأنا في الحديث عن النساء ومشاكل الجنس وقضايا الحب والغرام!

أنا الذي كنت أخاف النساء، لكن ها قد حان دوري فأصبحت معلقاً بهذه الفتاة الرائعة وقد لا يتجاوز عمرها العشرين عاماً. أسترق النظرة في اتجاهها من خلال المرآة الارتدادية الداخلية، فأجدها دائماً متقوقعة الجسم داخل مقعد الحافلة في الصف الأول. وكانت صرّاء لفّت جسمها في برنس وبري رائع استلفته مني ورأسها معمم بعمامة زعفرانية اللون. كانت الفتاة تبعث فيّ البلبلة وتعكر صفوي. رأيت اللافتة المكتوب عليها: المنيعة ـ تيميمون تمر بسرعة البرق. نظرت مرة ثانية إلى صرّاء ولاحظت أنها توقفت عن البكاء وقد أخذها سبات عميق.

تعودت الوصول إلى تيميمون مع طلوع الشمس حتى يتمكن السواح من اكتشاف هذا القصر البربري العتيق بواحته الخصبة حيث نظام توزيع مياه السقي يعود أصله إلى آلاف السنين، فكان يبهرني بتشعباته وتشابكاته. لذا كنت أقطع المسافة بين المنيعة وتيميمون ليلاً. ولما قدّمت بعض

الإرشادات للزبائن استغربوا القضية في أول الأمر، ما عدا صرّاء التي وافقت خطتي بشرط أن يدوم وقت المحطة لتناول وجبة العشاء فترة طويلة حتى يتسنى لها مشاهدة النجوم كما تريد.

ترقبت العاشرة مساء للتوقف. إنها الساعة الملائمة لبروز النجوم وكأنها تعج عجاً على صفيحة السماء وكأنها من الماس المخضب بالفضة اللماعة. فيشعر الإنسان آنذاك أنه يحملها كلها على أكتافه، حقيقة.

أما الآن، فيدايا تنزان عرقاً لبقاً. نسيت رغبتي في شرب كأس فودكا لأنني استغربت رد فعل صرّاء عندما سمعت خبر اغتيال الأستاذ ابن سعيد وهو من أكبر اختصاصيي أمراض الأطفال، اشتهر بتفانيه ونزاهته واستقامته. ولقد قتل الرجل ذبحاً من طرف عصابة ارهابية مكونة من شبان متعصبين ومدمنين على تدخين الحشيش. اغتيل المسكين أمام ابنته البكر على طريقة الأصوليين الذين يذبحون الأشخاص في قعر ديارهم وأمام ذويهم، ويستأصلون الأعضاء الحيوية عضواً، عضواً ويستلخون الجثث ويسفكون الدماء الزكية هكذا، باسم الدين البريء منهم ومن تصرفاتهم الجنونية والشنعاء، لا لشيء سوى للحصول على السلطة السياسية. لماذا بكت صرّاء كل هذا البكاء عندما سمعت الخبر المؤلم؟ هل اغتاضت لاغتيال رجل بريء كرس حياته لخدمة الأطفال؟ لعلها أحد طالباته؟ لعلها أحد أقاربه؟

ومهما يكن، فلأول مرة يأخذني الشوق نحو امرأة

فأردت تعزيتها وتسليتها وتعنيقها. لقد كنت، قبل هذا اليوم، أسخر من كل هذه الأمور الغرامية والعشقية والجنسية. أما الآن فبدأت أشعر بشيء غريب وغامض في نفس الوقت، يتحرك داخل أحشائي كل يوم أكثر فأكثر.

وعندما يأتي الليل وأجد نفسي وحيداً أواجه قنينة الفودكا بعدما نام زبائني، أريد الحديث إلى صرّاء والاختلاء بها. لو علم كمال رايس وهنري كوهين بالقضية لأخذتهما نوبة من الضحك لما كانا يعلمان عن كرهي للنساء. أردت أن أتحدث معهما في الهاتف وهما لا زالا يقطنان مدينة قسنطينة. لكن لم أجرؤ على القيام بذلك. ماذا سيقولان إذا صارحتهما بأنني أعشق صبية لم تتجاوز سن العشرين بعد؟ أنا الذي يناهز عمري الأربعين. سيسخران مني لا محالة ويقهقهان ويعلقان مطولاً على الموضوع وبإسهاب. كذلك صرّاء ستضحك مني لو صارحتها في الأمر. أو بالأحرى ستغوص في بحر من الصمت والكبرياء والكراهية. أحس بأنني إنسان قذر، فاحش وبذيء...

أبدو أكبر من سني وقد شخت وأنا بعد في الأربعين من عمري، مهووس بالإدمان على شرب الفودكا فأصبحت أعمل كدليل سياحي في الصحراء بعد أن طردت من الطيران العسكري وبعد أن حرمني أبي، ذلك الإقطاعي الثري من الإرث وبعد أن كنت تلميذاً موهوباً بثانوية Duverrier بقسنطينة. ومنذ السادسة عشرة وأنا أحمل هذا

الوجه، نفس الوجه وقد شاخ قبل أوانه، واختل كذلك هذا الرأس الصغير المحطوط على جسدي الطويل، اللامتناهي إلى حد أنني لا أعرف أين وكيف أتصرف معه. جسمي مبراد وهزيل ودبق ومضحك، فلا يتسنى لأحد وصفه بدقة. أربعون سنة وأنا أتعامل معه، هذا الجسم المخيف! وها أنذا اليوم مهدد من طرف أناس يحترفون القتل والجريمة وقد نصبوا أنفسهم أولياء على الأخلاق الدينية. منذ الأبد وأنا أعاني من عقدة الانتحار، فأحمل دائماً معي خمس برشمات من السيانور لهذا الغرض وأنا على استعداد كامل للتخلص من هذه الحياة البشعة. ومن حسن حظي أنني أحب كثيراً شرب الفودكا والسبع والعشرين طريقة لحل المعادلات الجبرية من الصنف الثالث، حسب ميزان عمر الخيام والتجوال في عمق الصحراء. ولولا كل هذه الأمور لانْتَحرتُ شر انتحار، لكن في حقيقة الأمر، أعلم أنني جبان وأخاف الموت ولعل قضية البرشمات الخمس التي أحملها في جيبي لا تدل إلا على نوع من التمسرح والتمثيل بالنسبة لنفسي. لكن لا أريد أن تفكر صرّاء ولو برهة من الزمن أني أهرب هكذا من الإرهابيين الذين اتخذوا من المدن الكبرى مأوى لهم. لا، أبداً! لعلها تظن أن شغلي هذا في ميدان السياحة هو طريقة مخفية للهروب إلى الأمام. أبداً! خاصة وأنني اشتريت هذه الحافلة العتيقة وبدأت أتسوح مع زبائني منذ فترة طويلة قبل أن تسقط بلادي في هلع الإرهاب الدموي.

الصحراء ـ ليلاً ـ عبارة عن تظليل رهيب. نوع من الحلم اليقظ. في الصحراء، يفقد الإنسان إحساسه بالواقع. في الصحراء كذلك، يرى الناس ناقات رائعات ذات اللون الرمادي المخضب بالوردي وهي تتبختر فوق الهضاب الرملية، ونخلات خضراء تنبثق هكذا من عدم، على الكثبان الشامخة والزعفرانية اللون. لكن كل هذه الروعة خيالية. الصحراء شرسة. قاسية. صعبة المنال. فليس هناك إلا السواح الذين يعبرونها مر الكرام للظن ـ هيولياً ـ بأنها (الصحراء) خلابة ومذهلة. ذلك أنها، بالنسبة لي تمثل المكان المثالي للتلوع والشعور بالعذاب والمقت والتعاسة. وفي الصحراء تعلمت اللوعة والوجع. وفيها كدت أموت برداً وقساوة. لذا اخترت أن آتي إليها، أن أسوح الناس فيها وأن أتعلم معنى الألم والوجع. اخترت الصحراء فقط لأن أتألم فيها. لم أجد مكاناً أفضل في العالم كله لمثل هذه الأحاسيس السلبية، رغم أنني جلت العالم كله مستعملاً كل وسائل النقل، من طائرات نفاثة إلى حافلات مهترئة.

لكن لم أشعر أبداً من قبل بهذا الحب الذي تسلل إلى أعماقي فجأة وخفية في آن واحد. أشعر وكأنني حامل أو امرأة غزر لبن الرضاعة في صدرها. أخاف أن أزيد في الشرب والسكر والثمل أمام هذه الحالة المريعة والمفاجئة. كيف التخلص من هذا الشعور الغرامي الذي داهمني هكذا وأنا بريء منه منذ ولادتي. لماذا أصدم بهذه الأمور التي

كانت تقززني سابقاً وأنا في هذه السن؟ ولقد فهمت صرّاء منذ البداية كل شيء ومن الأكيد أنها تضجر مني وتسخر مني، فتقول: «مسكين هذا العجوز الشرّيب! لقد سقط فجأة في استيهامات الشيخوخة الشبقية والمتلعبنة!».

أقول لنفسي أن لا مفر من هذه المعضلة إلا بالصمود واللامبلاة. علي أن أستأنف رحلتي وأقود حافلتي الهرمة هيكلياً والرائعة ميكانيكياً وقد سميتها «شطط» لأنها غريبة المنظر وبالغة السرعة في آن واحد. وهكذا أستحوذ على الصحراء كلها بجفافها وخصوبتها، بصلافتها ولطافتها. ذلك أن الصحراء قارة بأكملها. قارة باردة حيث الشمس حارة. حولت عنفي ضد نفسي هاته المترهلة. نوبة من السعال انقضت على أحد المسافرين، لأن الصحراء وعرة خاصة عندما يعبرها المرء على متن حافلة قديمة الهيكل ورهيبة السرعة: مئتا كيلو متر في الساعة! فتتسلق «شطط» الكثبان العالية وتنحدر منها بطريقة جهنمية. قضيت عاماً كاملاً في إصلاح المحرك بعدما اشتريتها من مدينة جنيف بثمن رخيص جداً. فغيرت جل قطعها فكان البعض منها جديداً والبعض الآخر استعدته من حطام الطائرات المطاردة. وأكثر من هذا، فقد أضفت إليها معجلاً وأجهزة الإخماد من طراز الرولز رويس! لذا جاءت «شطط» مختلفة عن غيرها من الحافلات اختلافاً كبيراً.

الليل قاتم سواده. السماء تعج بالنجوم الناصعة. أنظر إلى وجهي في المرآة الارتدادية، فيتبين لي شاحب اللون،

مغبر البشرة، تائه العين وكأنه قد طلي بالشمع الأصفر. يذكرني هذا الوجه بوجه أخي يوم وفاته بعد أن دعسته قاطرة الترامفاي. فكفن ووضعت جثته على بساط أحمر. فجاء وجهه مشمّع اللون، مزجّج البشرة.

فضّلت يومها المكوث في الحديقة حتى أتفادى مشاهدة الطقوس الجنائزية التي كثيراً ما يحبذها والدي. فاستغل الفرصة وأودعني حراسة كل الأطفال ذكوراً وإناثاً. ظهرت الشمس وكأنها ميتة. كان ذلك في أواخر فصل الخريف. الشمس، عبارة عن كتانة بيضاوية الشكل وفاترة اللون. مات أخي بسبب المخاطر التي كان يتلاعب بها. حاول، كعادته، ركوب الترامفاي وهو يسير بسرعة هائلة، ففوّت الدرج فداسته القاطرة فمزقته تمزيقاً. كان يراهن أصدقاءه فيحاول ركوب كل وسائل النقل وهي تسير بسرعة، إلى أن خانه الحظ في أحد الأيام، فمات موتاً شنيعاً.

قررت المكوث في البستان يوم جنازته، إذن. الشمس بدأت في الانحدار فبانت باردة، مبعجة ومغيمة نوعاً ما. بعدما غابت الشمس رأيت العصافير راجعة إلى أوكارها بعدما جالت في الأجواء طوال يومها. رأيتها تنقض على أغصان أشجار البستان وتغيب عن نظري. ومن حين إلى آخر يبرز طائر على حافة أحد الأغصان ويبقى هكذا دقائق طويلة، دون حراك. فتبرز هذه الوضعية عينيه الكحيلتين الصغيرتين وكأنهما مساسيك سوداء وكذلك منقاره البراق ذا اللون الوردي المخضب بشي من الصفرة. ثم يخرج

الآخرون وقد ساد الظلام البستان بأكمله. أرى أشكالهم المريشة تنتفش رويداً رويداً زهوراً وغروراً ودلالاً. وسرعان ما تأخذ الإناث في تلميع ريش صغارها، على وتيرة متوترة، متنرفزة، وشبه آلية. ثم تعيد الأمهات الكرّة، فتبلل الريش وتلونه بلون رصاصي فيه قليل من الزرقة فتظهر حركاتها بطيئة ومتثاقلة وتأتي أحجامها متورمة ومتضخمة ويُخيَّل لي، آنذاك، أن عدد العصافير قد تكاثر بسرعة غريبة.

وعند طلوع الفجر أرى نفس العصافير تخرج من أعشاشها وتحضّر نفسها وهي على أهبة الانطلاق. فلا يمنع هذه الإناث من تنظيف ريش صغارها مثلما فعلت عند غروب الشمس، عشية البارحة. أما الذكور فيأخذون في التمظهر والتبختر على حافة السطح المقابل بعنجهية خارقة وكأنما يريدون هكذا جلب أنظار الإناث لإغوائها وجذبها وسحرها من فرط ما ظهر عليها من دلال وتغنج وحيلة ماكرة. فيشتعل في أعينها آنذاك بريق ناصع يذكرني بحلية مرصعة بجوهرتين كانت لا تفارق جيد أمي أبداً.

وتبقى أعين العصافير هذه تحدق في العدم دقائق طويلة، فأشعر بأنها مملوءة كآبة وحزناً وميلاً هائلاً إلى الانتحار. وكأنها (العصافير) كانت تحمل في أعينها كل دموع العالم وخاصة دموع أمي التي بقيت في مقلتيها إلى الأبد، منذ وفاة ابنها البكر، فجاءت الدموع هذه وكأنها متحجرة ومتصلبة.

ومنذ ذلك اليوم المشهود ظلت نظرة أمي حزينة، كئيبة وفيها علة وكرب وسأم وبكاء صامت ورهيب وكانت أمي تحمل نفس النظرة المتلوعة يوم صفعتني في آخر البستان لأنني شاهدتها وهي تنشر خرقها الحيضية وكانت حريصة على أن لا يشاهدها أحد وهي تفعل ذلك، فتحيط هذه الأمور الخاصة بالنساء بنوع من الصمت والخفاء يزيدان في عدم تفهمي لهن، فتصبحن هكذا هيوليات ومخيفات في نظري.

كانت أمي تنشر منشفاتها هذه على حبل الغسيل، إذن وعندما رفعت ذراعيها، برزا إبطيها نظيفين، لامعين، مصقولين، دون أي زغب يشوبهما أو يكحلهما، على عكس ما رأيته عند بعض النساء اللاتي تملكن إباطاً ذات بشرة محببة ومفحمة ومجعدة. كادت أمي أن تموت بعدما صفعتني لأول مرة في حياتها وقد ذنبت نفسها وندمت على عملتها. فزادت نظرتها ضبابية وكساداً ولوعة.

وكان المؤدب قد عاقبني صبيحة نفس اليوم عقوبة شديدة، فضربني ضرباً مبرحاً على أخمص القدمين لأنني رفضت كتابة الآية: « . . . ويسألونك عن المحيض، قل هو أذى». قلت لن أكتب هذا فأمي طاهرة. لكنني لم أصرح لها بهذه العقوبة أبداً حتى لا تتذنب أكثر ولا تحزن بإفراط!

كانت الحافلة «شطط» بإطارها القديم ومحركها السريع تشق الفيافي ليلاً وأنا أقودها بمهارة، فتكاد تطير بمعدل يفوت الـ 150 كيلومتراً في الساعة. أما صرّاء، فنائمة نوماً

عميقاً. كانت الساعة تشير إلى التاسعة وخمسين دقيقة. فبعد دقائق سأوقف الحافلة لتناول وجبة العشاء في الهواء الطلق. فأحضر آنذاك الكسكسي وأطهيه وأحضر كذلك الشاي المنعنع وأتقن تغليته على النار بعد أن أشعلها بسرعة فائقة وقد تحنكت في القيام بهذه الأمور في الخلاء. تلك الأمور التي تعهد عادة إلى النساء، من طهي وطبخ.

قال أبي في موضوع وفاة أخي الأكبر: «لم يسعفه الحظ. لقد فوّت حياته بتفويته درجة الترامفاي!» لا أكثر! ؛ وكان صوته مملوءاً بسخرية وازدراء، وفي يوم الغد، أي بعد يوم فقط من دفن ابنه، سافر أبي إلى مدينة برشلونة لقضاء بعض الأشغال التجارية، فرافقته إلى المطار، وبعد رجوعي منه شربت أول كأس فودكا في حياتي، برفقة كمال رايس وهنري كوهين الذي اختلس القنينة من أبيه.

III

لم أنس أبداً اليوم الذي دفن فيه أخي وشُيعت جنازته. وقد فاتته الحياة بتفويته درجة الترامفاي. ورغم أنني لم أشاهد مراسيم الجنازة، استبقيت في ذهني خليطاً من الإيقاعات الموسيقية ومزيجاً من الأصوات الفوضوية منها البكاء والعياط والزياط والترتيل وقرع الأواني وصرير بوابة البستان وقد تصدأ مصراعها بعد عدة سنوات من الاهمال وتركه دون عناية ولا تشحيم. وكان سبب صرير البوابة راجعاً إلى الريح العاتية والحارة التي داهمتنا في تلك الأيام الخريفية.

لا زلت أحتفظ في ذاكرتي بآثار تلك الغوغاء والضوضاء وذلك الصدى المدوي والمشحون بالأنات والزفرات والترتيلات والصيحات، وذلك مدة الحداد كلها. كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها لاستقبال الزوار الذين جاؤوا لتقديم تعازيهم، وكان من بين هؤلاء عدد كبير من الزوافرية و«الزازُوات»، كلّهم أو جلّهم من أصدقاء أخي

وقد أدخلوا بعض التشويش وبعض البلبلة على مراسيم الجنازة.

وبقيت أثناء المأتم برفقة الصغار في قعر البستان حيث السويداء لعبت لعبتها داخل كياني العاطفي المفكوك بصدمة وفاة أخي. تسلق مهدي أخي الصغير أعلى أكبر توتة في الجنينة محاولاً هكذا مشاهدة ما كان يجري داخل البيت، لكنه لم يتمكن من رؤية أي شيء. قالت سعيدة أصغر البنات في اتجاه مهدي: «انزل يا مهدي... اهبط... كان يشوفك بابا يعطيك طريحة...». انصاع مهدي لكلامها ونزل من الشجرة الضخمة فسقط على الأرض بعنف فتجرحت ركبته اليسرى. أخذ في البكاء. سعيدة وضعت يدها على فيه حتى لا يسمع الكبار صيحاته. عض مهدي يد سعيدة. تتركه أخته فيتوقف عن البكاء، فوراً.

آثرت الصمت. أنظر إلى الجرح الذي اعترى ركبة مهدي. يجلس أخي الصغير على أرضية البستان حيث العشب الندي. يأخذ مهدي في امتصاص الدم النازف من الجرح. فتضحك سعيدة من تصرفاته الصبيانية. تنظر إلي لتستفزني. لا أبالي بها. أغير اتجاه وجهي حتى لا تراني. لم أبلغ السادسة عشرة من عمري ولا أعرف للموت معنى. لكن أحدس حدساً رهيباً بأنني فقدت أخي الأكبر من أجل درجة ترامفاي.

أما الآن وأنا في سن الكهولة، أستفيق كل صباح وفي فمي مذاق الفودكا الكريه بمرارته وحموضته ولم أتخلص بعد من رواسب السكر ووجع الرأس وثقل الأجفان فتتراءى

لي مويجات مطاطية وملونة ومتعربسة الشكل. لا أدري متى. أخرج من النوم ومتى أنبثق داخل واقعية الأشياء، البتة. مهما كان الزمان والمكان. يحدث ذلك في غرف الفنادق الصحراوية وفي العراء حيث أنام بصحبة السواح، بالقرب من نار تدفئنا من برد الصحراء القارس. لكن مهما كان من أمر، أحاول فور استيقاظي ترتيب أحلامي وكوابيسي حتى لا تزعجني أثناء النهار.

أشعل أول سجارة فيغطي دخانها الفضاء ويكون طبقات كثيفة، تكاد تكون نوعاً من المادة الصلبة. أتلفّظ بأول تنهداتي اليومية وأتخلص بسرعة من النكد المتراصّ في المعدة. أترك، إذن، الكوابيس جانباً رغم أنه لا تفوتني أية جزئية وأي تفصيل وأنغمر داخل الواقع المادي والملموس حتى لا يفاجئني ويقضي على معنوياتي الهشة. وهكذا أتعود على الأشياء والناس رويداً رويداً. ثم يبدأ أزيز الذباب في الصيف وأهاسيس الرياح في الشتاء. وهكذا يذوب غموض العالم وتتحقق كل امكانيات الحياة اليومية.

ومنذ سنوات عديدة يداهمني اسم أخي المفقود فور استيقاظي كل صباح. فأتذكره بجسمه النحيل وقامته القصيرة ورأسه البهلواني وعينيه المراهقتين وكأنه شاهد ميلاد الكون ونهايته. لكن ومنذ أيام فأول ما يتبادر إلى ذهني بعد أن أستفيق من النوم هو وجه صرّاء فأبقى مهووساً به باقي النهار. وكانت نظرتها تقزّزني وتعذّبني وتحوّلني إلى إنسان مريض، هش وضعيف. يقزّزني هذا الانطباع الذي يتوغّل في أحشائي. أحاول التخلص منه. ولكن ما أن أقرر ذلك حتى أتراجع بسرعة وأفقد أرادتي وأبقى أتلوى غيظاً وحسرة.

لماذا أسقط في شباك الحب في هذه السن المتقدمة؟ لماذا أعشق صرّاء بالذات وليس غيرها؟ لماذا يعتريني كل هذا في هذه الفترة بالضبط؟ في وقت كنت أظن بأن حياتي انتهت وقد شعرت بهذا يوم اشتريت هذه الحافلة القديمة في مدينة جنيف. قررت آنذاك أن أدفن نفسي في الصحراء وأترقب فيها منيتي لأنها كانت تبهرني وترعبني في آن. اخترت الصحراء لأنها صعبة المنال، أفضل من المدن المتضخمة، المزدحمة والمتورمة.

قررت أن تكون الصحراء طريقة الموت والانتحار. الصحراء عبارة عن فضاء متكتل ومتغير ومتلون، على ما يبدو، لكن في الواقع فالصحراء شيء آخر. فهي مجموعة من الأشكال والأحجام المشبعة بالخطوط المتشابكة والصادرة كلها عن شبكة سميكة وسميكة، متشابكة ومتراكبة ومتقاطعة عناصرها كما تبرز ـ أساساً ـ في الواحات الرهمة والخصبة خصوبة لا مثيل لها في أي مكان آخر. تلك الواحات الرائعة حيث تكون أمشاط «الفوقارات» التي توزع مياه السقي على البساتين، شبكة رائعة تتماشى ولحمة النباتات والأشجار المتقاطعة مع بعضها البعض. وتكون هذه المجموعة ما يسميه الناس عادة: الصحراء. الصحراء التي تنخر جسمي وتجرح بشرتي وتحرق جفوني وتلهب صدري من فرط جفاف الجو.

ومنذ أن سقطت في غرام صرّاء تأخذني الرعشة فيما أنا أقارع الكحول، لمجرد الوعي بأنها تنام غير بعيد مني

ملتفة في كيس الرقاد إذا بتنا في الخلاء الصحراوي، أو في غرفتها إذا بتنا في فندق من الفنادق.

ولما أثمل كان شبح العمة فاطمة يطاردني، وهي «الخدَّامة» العجوز التي كانت تعمل في منزلنا عندما كنت طفلاً. وكانت العمة فاطمة قبيحة المنظر وهي دائماً لنا بالمرصاد، تعاركنا وتوبخنا وتضربنا. فلا تتوقف عن تنظيف البيت ليلاً، نهاراً. وكان يذهلني خوفها من السلحفاة تتبرك بها تطيّراً منها. وكنت أتذكر على وجه الخصوص نابها المزنجر والفريد من نوعه كانت تحركه أمامنا، غاضبة ومزمجرة، فنموت ذعراً.

وإذا رفضنا احترام الطقوس المنزلية والأخلاق العائلية كانت تجري وراءنا وتهددنا وتوبخنا وتقرص بشرتها بشراسة وغطرسة فائقتين وتتفوه بكلام بذيء بالنسبة لامرأة مسنّة: «ولاد القحاب... ولاد الهجلات... جيتو تتزبو قبل ما تتعنبو... آه!» ولكنها في الحقيقة لم تكن تعي ما تقوله لأنها كانت تجهل معنى كل هذه الكلمات الفاحشة، ترددها بطريقة آلية، بعدما سمعتها في الشارع. وكانت مهووسة بنظافة البيت إلى درجة الجنون لا تخاف أحداً ما عدا الله وأبي والسلحفاة المسنة والتي كانت العمة فاطمة تقدسها تقديساً.

أمّا نحن الأطفال فكنا نستفزها بدورنا من حين لآخر، فنلجأ إلى التوتة الضخمة فنختفي بين أغصانها الرائعة واليانعة، مستعدين على إعلان حالة الطوارىء إذا اقتضى الأمر ذلك. ونبقى هكذا داخل الشجرة الكبيرة نشتمها

ونتهكم عليها. فنتخلص هكذا من أظافرها المسمومة وصوتها المزعج ونبقى مدة طويلة والعجوز بالمرصاد لنا تحت التوتة لا تني تعاركنا وتقذفنا بنفس الكلمات القبيحة: «ولاد القحبة... جيتو تتزبو قبل ما تتعنبو...!» فنبقى إذن هامدين، ساكنين، داخل التوتة لعلها تنصرف وتتركنا لحالنا. لكن دونما جدوى! وكنت أغتنم هذه الفرصة لقطف بعض الأوراق حتى أقدمها إلى دود القز الذي كنت أربيه لكنه كان ممراضاً فيرفضها رفضاً باتاً.

أما السلحفاة فكانت تقضم كل شيء نباتي من أوراق التوت إلى أوراق الخس وتنحتها نحتاً رائعاً. أما إخواني فكانوا يقطفون كذلك أوراق التوت ويقدمونها إلى دودهم، فيأكلها بنهم وشهية كبيرة لأنه بصحة جيدة! كانوا يربونه بدون أي إشكال وبراحة بال خارقة، فيحشرونه في صناديق صغيرة من الخشب العادي وكنت أنا على عكس ذلك أملك صناديق من الخشب الثمين كنت قد ورثتها عن أخي الأكبر المتوفّى الآن، وقد ترك لي كراريس عديدة مخططة بالحبر الأحمر لم أفهم في البداية مضمونها ولا مدلولها، إلى أن دخلت في طور الشباب.

لكن وفاة هذا الأخ لم تكن بالقضية الهينة أو مجرد مزاح تسبب فيه ابن ضال أو تلميذ ضاج. فلم يكن الأمر متعلقاً بحادث المرور فقط بل كان أكثر من ذلك بكثير! فمن السهل تبرير موت أخي بالحادث الأليم، ذلك أنه فوّت درجة الترامفاي فداسته العربة، بعد أن راهن أصدقاءه

على الركوب فيه وهو يسير بسرعة قصوى. كان أخي في الحقيقة يحاول الانتحار في كل مناسبة وكان يستفز الموت كل يوم وبشتى الوسائل. لكن أبي رفض هذه الأطروحة تحت ضغط السلطات الدينية التي كانت تدين فكرة الانتحار. أما باقي أفراد العائلة فقد خافوا من القيل والقال والاشاعات المغرضة فصمتوا. لفت أمي رأسها في خمارها البربري مدة سنة كاملة ولم تنبس ببنت شفة حول هذا الموضوع ودام صداعها كل هذه المدة.

كان يوم الجنازة يوماً عادياً. الجرس يرن كل ثانية رغم أن البوابة ظلت مفتوحة على مصراعيها. يلعق مهدي قطيرات الدم كلما ظهرت على سطح بشرته المجروحة. يتوقف من حين لآخر حتى يترشح الدم. تقهقه سعيدة كعادتها. أنظر إلى الدار من خلال شجرة التوت. كل النوافذ مغلوقة. تصل الترتيلات وصيحات النحيب والبكاء إلى أذني. وكذلك قرع الأواني وهي تغسل في المطبخ. ومن حين لآخر تصلنا أصوات بعض «الخدامات» وهن يتشاجرن لأتفه الأمور، الجو يعبق بروائح البخور والخميرة وماء الورد فتختلط كلها وتكون نوعاً من الفوحان، ثم تعقبها أشياء أخرى مثل آثار الكافور والاثير والفرمول.

يؤكد مهدي أنهم يغسلون الميت. لا أفهم ماذا يقول أو أرفض فهمه. لماذا تغسل جثث الأموات وهي لا محالة ستتعفن بسرعة وتنتقع وتتمرث. لم أشعر بكل هذه الروائح إلا بعدما استمعت إلى الضوضاء والغوغاء الصادرتين من

المنزل. وكأنهما تنبعان من أعلى التوتة. الضجة عبارة عن خليط من التراتيل والعويل والنديب. صدى الجرس لا يني أن يدق ويدق. تجرحنا تموجات الهواء الحار على مستوى الجفون وتبهرنا. أبقى في مكاني لابداً. مهدي يستلقي على الأرض حيث العشب غزير، بقرب التوتة. سعيدة تتسلق جذعها بصعوبة. أرى ساقيها ثم فخذيها ثم تختفي بين الأغصان، فلا أعود أراها.

يتآكل الضوء المبهر الأجفان من فرط الحرارة. أبقى كالأعمى عدة دقائق تحت ضغط القيظ الرهيب. يتلولب الفضاء أمامي وقد بلغت الحرارة أوجها. وكأنه يتحجر ويتفجر على شكل رقاقات حازة ومضرة. أنظر في اتجاه أخي ولكن لا أرى شيئاً. أسمع فقط لسانه يلعق الدم المترشح من الجرح باستمرار.

•

لقد تجولت عبر الصحراء كلها مدة سنوات في عزلة تامة. لوحدي. أقود «شطط» وأعيش داخلها فآكل وأنام وأشرب وأسكر وقد استحالت الحافلة منزلاً. ودامت هذه الفترة إلى أن أوقف الجيش نفقة المعاش الهزيلة التي تحصلت عليها بعد طردي من الطيران العسكري للأسباب المذكورة. عندها وجدت نفسي مضطراً إلى احتراف مهنة الدليل الصحراوي لأقتات منها عيشي. كنت في الأول أرفض بيع الصحراء الرائعة إلى السائحين أجانب كانوا أم لا، لأنني أعلم علم اليقين أنهم يأتون إلى هنا بحثاً عن السعادة.

وأنا أظن العكس. أظن أن الصحراء هي المكان المركزي للعذاب والآلام واللوعة. رفضت إذن أن أبيع الصحراء، في البداية، كشيء يستعمل لتغريب الزوار بطريقة مجلوبية فيأتون هكذا زرافات وقوافل مستعجلين ووجوههم منبهجة.

لا يعرف الناس معنى اللوعة إذا لم يشاهدوا من أعلى جبال الآسكريم هذا الاضطراب الكوني وهذه الفوضى المنجمية اللذين يكونان منطقة الهوقار حيث تتراكم الرمال والكثبان والجبال بطريقة مخيفة ومريبة. فيفكر الإنسان حتماً في الانتحار من فرط الروعة والابتهال. الصحراء هي عبارة عن غوغاء الكون وتضاربه وهي، كذلك عبارة عن انقلاب جغرافي وجيولوجي في نفس الوقت.

لم أصرح أبداً عن إحساسي بالموت والانتحار في قعر الصحراء لأي زبون من الزبائن.

ولا حتى لصرّاء!

إنها ليست قادرة على فهم ما أريد أن أعبر عنه. إنها في بداية شبابها ولا علاقة لها بكل هذه اللوعة وهذا الإفراط. لم أصرح أبداً عن إحساسي ولا عَمَّا كان يخالجني عندما أزور منطقة الطاسيلي، لأي زبون من الزبائن. وهم يزورونها بسرعة، متسرعين، متزاربين، متوجهين فوراً نحو المنحوتات الصخرية ولم يبق منها إلا القليل وقد سرقت ونهبت جلها من طرف الضباط الفرنسيين والغزاة المستعمرين وعلماء السلالة.

ولا حتى لصرّاء!

إنها ليست قادرة على فهم كل هذا الجنون وكل هذا العته وهي لم تبلغ العشرين عاماً بعد.

كان اليوم الذي شيعت فيه جنازة أخي، شبه عادي. سعيدة تلهث وهي تحاول الصعود إلى قمة التوتة، متسلّقة أغصان الشجرة العتيقة للوصول بسرعة إلى أعلاها. أرى بطريقة واضحة وجلية مهدي وقد انبطح أرضاً وأرى كذلك جذع الشجرة الأعجز.

أريد أن أفقد بصري من كثرة الأسى فلا أفلح. يصلني صوت سعيدة من أعلى الشجرة وكأنه رخو، مطاطي ونثّ. تصيح سعيدة قائلة: «إني أرى ما يجري داخل البيت... إني أرى كل شيء... إني أراهم...! يهزأ مهدي بها. لا أتفوه ولو بكلمة واحدة. أعلم أنها تكذب وتدجل. أعلم أن كل النوافذ مغلوقة وكل المغالق مسدولة. لا يمكنها إذن مشاهدة ما يجري داخل البيت. يجلس مهدي على قفاه. يستأنف علق دمه ويبصقه من حين لآخر. تصمت سعيدة بعد محاولة اغرائنا. ينزل علينا الصمت فجأة. حفيف الأوراق المتحركة تحت تأثير الريح يبالغ هذا الانطباع. لا زالت الغوغاء تصلنا من البيت. يقهقه مهدي برهة من الزمن دون ما مبرر. تناديه سعيدة: «تعال! أراهم خارجين من الدار!» لا أصدقها. مهدي يسخر منها. يلفظ بصقة ضخمة فتتعالى في الفضاء وترسم نصف دائرة ثم تسقط على جذع التوتة. ثم يستلقي ثانية على العشب فيتدحرج ويتمرغ عليه

ثم يتوقف فجأة ويبقى منبطحاً على بطنه. أظن أن الدم كف عن النزيف.

ينهض مهدي ويجلس متربعاً. لقد نسي جرحه الصغير. أشعر أن سرواله قد انتفخ على مستوى الفتحة. يتلمس قضيبه يدفل بصفقة خثرة. يداي دبقتان عرقاً. يأخذني الغثيان. الفضاء يتموج تحت سطوة الحرارة. يفتح مهدي سرواله، أحدق فيه ثانية. يرفض النظر إلي. يلعب بقضيبه فينتفخ تدريجياً. أريد أن أتقيأ. يضيق صدري. لا أتحمل أكثر من هذا! يتنهد بلذة شبقية. أحدس أنه يرجع قضيبه إلى مكانه ويغلق فتحة سرواله. الزمن لم يمض. يداي تنزان عرقاً أكثر فأكثر. لم يكن أخي الأكبر بطلاً بل مرغماً على الانتحار؛ كان يخاف من الحياة خوفاً شديداً. فمنذ أن بلغ سن العشرين، بدأ يستفز الموت ويبحث عنه ويراهن عليه ويتشممه عن قرب كما كان يقول.

ولما بلغت أنا السادسة عشرة من عمري خالفت الطقوس الدينية وشربت أول كأس فودكا، برفقة شركائي ومن بينهم كمال رايس وهنري كوهين. وكان ذلك غداة جنازة أخي.

أما في هذه الأيام فقد قررت أن أعدل عن الشرب لأن صرّاء قالت هكذا في أحد الأيام، دون التوجه إلى أحد على وجه الخصوص: «إنه يبالغ في شرب الكحول»! فهمت مرادها. أردت أن أجاملها. مكثت أياماً دون ابتلاع ولو قطرة واحدة من الفودكا. استراح جسمي لهذا. لم أعد

أشعر كل صباح بذلك المذاق المر في فمي، كأنه دواء ذو طعم فولاذي ورملي في نفس الوقت. لكن يديَّ أصبحتا تنزان عرقاً خاثراً أكثر فأكثر. فهمت أن حب صرّاء قد كواني. كانت الفتاة تملك أناقة طبيعية رهيبة. رغم أنها لا تلبس إلا سراويل الجينز وأحذية التنس و«شاشات» صحراوية أنيقة الألوان.

أشعر الآن أنني فوّت أمراً أساسياً في حياتي. والأساسي بالنسبة لي الآن هو صرّاء. كنت أبذل كل جهد حتى أنال رضاها وإعجابها. وهكذا كنت أهمل شيئاً ما زبائني الآخرين أثناء هذه الرحلة المشهودة. أتركهم وآخذ صرّاء معي لنزور سوق الجمال في «تيماسين» أو قرية «فاتيس» الغارقة في الرمال النازحة، أو أحد أصدقائي فيدعونا إلى تناول الغذاء معه من خبز صحراوي مخبوز تحت الرمل ولحم مشوي داخل أوراق التين متبل بمسحوق المشمش والثوم...

كنت مولعاً بالتقاط صور لصرّاء فأتفنن فيها وأشرب الماء المعدني بكثرة حتى أكون عند حسن ظنها. لكن دون أية نتيجة تذكر! قلت لها يوماً: «اسمك صرّاء وهو يشبه كلمة صحراء». لم ترد علي. اغتضت منها ومن بلاهتي التي أجبرتني على أن أتلاعب بالكلمات بطريقة سخيفة. أما هي فتركتني أسبح في نزواتي الغرامية وكميات المياه المعدنية التي كنت أتجرعها في سبيلها، هي صرّاء وقد أخذ مني الحب مأخذه. وكان هذا الإحساس غريباً عني من ذي قبل فلم أعرف كيف أتصرف مع الفتاة.

جن جنوني وأخذتني الحيرة وأذهلتني السويداء. فأهملت الناس والمهنة والحافلة «شطط» ولم أعد أفقه في الأمور شيئاً. غرقت في صبابة رهيبة وتهت في فيافي العشق وطياته وتلافيفه. وكان إهمالي «لشطط» له عواقب وخيمة إذ تعطل محركها الرائع من جراء تسرب الرمال داخل عناصره الآلية وتهاطل الأمطار الصحراوية التي داهمتنا مدة ثلاثة أيام. كما أهملت جسمي الذي أصبح يعاني من نقصان الكحول وقد توقفت عن تجرعها منذ أسبوع بأكمله! فشعرت بأننا، أنا وحافلتي، أصبحنا متروكين ومهملين ومتلفين.

أما صرّاء فكانت تتجاهلني، متبخترة، متألقة ومتصنعة. فتظهر لي في المنام كل ليلة وقد اجتاحني إعصار حبها وعشقها وشهوتها. شعرت وكأن مرضاً عضالاً أصابني فجأة. وسرعان ما عدت إلى شرب الفودكا لأن القنينة أسهل من المرأة فأشرب وأسكر و«أعصر القرعة» نكاية في نفسي.

لم أنس رغم هذا كله الدور المناط إلي كدليل يقود زبائنه عبر الصحراء الكبيرة. وكنت أحاول دائماً كسر الأفكار المسبقة بالنسبة لهذه المنطقة والمتفشية كثيراً عند السائحين. فكانوا يأتون إليها حاملين في أذهانهم نوعاً من السذاجة والعفوية. لذا كنت أترك الطرق المستهلكة وأفضل الدروب الوعرة والخطيرة لأنها تنتقل من مكان لآخر في سرعة البرق، كذلك الكثبان التي تتحول في رمشة عين

والشواطىء الملحية التي تختفي فجأة وقوافل الجمال التي تنبثق في برهة من الزمن وكأنها تخرج من العدم وتكون مهالك رهيبة للسيارات بكل أنواعها.

أشعر آنذاك أن صرّاء تشاطرني رؤيتي بالنسبة للصحراء لكنها لم تعبر أبداً عما يخالجها. كان من المستحيل جذب نظرتها ورغم هذا فلم أنسى مجاملتها وتبجيلها وتكريمها والتملق إليها، كذلك!

لا أنظر إلى وجهي إلا من خلال المرآة الارتدادية الداخلية، فأرى، أو بالأحرى، أكتشف كل مرة نفس الرأس الصغير ونفس الوجه المجعد، نفس الجسم الهزيل ونفس القامة المبالغ طولها. دائماً نفس هذا المظهر المخزي والمخيف. وكأنني عبارة عن بهلوان بدون عظام قد أحرقت أشفاره في يوم من الأيام وهو لا زال رضيعاً. أنظر إلى نفسي فأصادف وجهي المشروم والمثلوم والمبعج فلا أطيق نفسي وأتقزز من روحي.

مهري يعبر الصحراء متبخترا ومتباطئاً. الصحراء زعفرانية اللون. المهري يمشي الهوينا وكأنه أعمى. ترتسم حركته على الفضاء بطريقة رائعة الجمال. يظهر وكأنه لطخة زرقاء تتحرك ببطء كبير. يعبر شاطئنا ناصع البياض. حوافر المهري ترفع أكواماً من الرمل الأشهب وسحابات من الملح الأخضر. يظهر الشاطىء المسبخ وكأنه جليدي من كثرة الإشعاع. الجمال يخلف في الهواء المتموج أثراً ليلكي اللون، منتفش الشكل. الصحراء قاسية البرودة في

الشتاء حيث الفضاء يبرز مبيّضاً رغم الكثبان الرملية الزعفرانية اللون والحمراء والصفراء. أشعر آنذاك أن الصحراء صعبة المنال والمعالم، مشاكسة المناظر ومحبجبة الهواء.

ويبدو غروب الشمس أثناء الأيام الشتوية وكأنه كتانة بيضاوية الشكل، أحمر قانٍ لونها ورمادي كذلك. فتلتهب الشمس الأفق وتخضبه بالخزامى. فكأن السماء مشوهة بلطخات متموجة الشكل. متغيمة، تلتصق الشمس عندها على القصور الصحراوية ذات الأشكال الغريبة، وعلى الأجرفة الحمراء التي تعتلي الشواطىء الملحية وقد تلونت في آخر النهار باللون الأزرق. ثم سرعان ما تتغير كل هذه الألوان إلى عكسها. ثم، فجأة، تغيب الصحراء. فلا شيء!

لم يبق أي شيء ما عدا ذلك الجفاف الذي يزجج الهواء ويجعل الرمل المتسرب إلى الفم يصر و«يخزخز» تحت الأسنان عندما نتوقف ونخيم ليلاً في الخلاء، فأطهي الكسكس وأحضر الشاي وأوقد النار وأقوم بكل هذه الأعمال حتى أبهر صرّاء، أيضاً!

أما الآن، فكل السواح نيام، أغتنم الفرصة لتصليح محرك «شطط» وقد أهملته منذ أيام. «شطط» تلك الحافلة التي اشتريتها بثمن خردلة في مدينة جنيف. ألف فرنك سويسري بالضبط. وكنت أتقن كل هذه الأعمال الموكلة إلي حتى أنسى هاجس الفودكا الذي يمقتني وينغص عليَّ

عيشي وحتى أتحصل على إعجاب صرّاء. لكن دون جدوى!

صحافي فرنسي يغتال من طرف إرهابيين إسلاميين بالقصبة، في الجزائر العاصمة.

أما هوس الصحراء فقد ابتليت به منذ سنوات قليلة، فقط.

IV

في ليلة من الليالي اجتررت كمال رايس وهنري كوهين إلى محششة حيث الحلم هين يسير، رغم المظاهر. ففي هذا المحل تكتسي أوجه الحشاشين صبغة الغياب تلك التي يخلفها الابتهال عند الناس. يبانون مفرطين في الجد والوقار وكأنهم يترقبون الموت أو عدمه. يتشاجر السكارى مع الحشاشين بطريقة شكلية وفي هدوء تام. يتراهن أكلة السردين المشوي على أتفه الأمور. ليس لرائحة المرأة وجود! مجموعة من اليمامات تهدل بلطافة وحذق. أسطوانة تغرد أغاني تدور حول النساء وجمالهن وشبقهن.

كمال الرايس قلق، لا يعجبه المكان. يريد الإنصراف والذهاب إلى أحد المواخير. نرفض أنا وهنري كوهين اقتراحه. أوشوش في أذن هنري كوهين أن أخته جان كوهين متعلقة بكمال الرايس وقد يشكل خطراً عليها. تعبق رائحة الحبق المزروع في أصص مزركشة. يدخل شخص المحششة حيث يجلس الزبائن على حصائر مفروشة على أرضية المكان. يبدو غريب الأطوار لأنه لا يفوح برائحة

الأقدام مثل الآخرين. يحمل الرجل موساً ذا فرضة في جيب سترته من النوع الصيني. لا يخرج الموسى من الجيب لكن وجوده لا ريب فيه! يغتنم كمال رايس فرصة حضور هذا الشخص الغريب ليحثنا على الانصراف. لقد امتلكه الخوف وهو معروف بجبنه لدينا. نرفض البتة وقطعاً. يهز شيخ مسن رأسه ثم ينهمك في أفكاره التي تخالجه بطريقة عميقة وكان جسمه نحيلاً إلى حد الدهشة. عبارة عن هيكل عظمي.

كمال رايس يقول: «بلاصة ما فيهاش النساء ما عندهاش معنى ولا طعم!» هنري كوهين يجيبه: «برافو عليك يا سيد الرجال... ما تحب النساء إلا باش تنيكهم... بصح كان تتدي أختي لسينما Le Colisée نقتلك! Anus cosinus, sinus...». يمرر أحد الصناع كأساً مثلومة مملوءة خمراً بمهارة فائقة و«سبسيا»، أي غليوناً، مدكوساً حشيشاً. ينتقل الكأس من فم إلى آخر، وكذلك الحال بالنسبة للغليون. يتظاهر كمال رايس بنوع من المضايقة لأن الناس كلهم يشربون من نفس الكأس. يضع المعلم أسطوانة لرينات الوهرانية. أخذ هنري كوهين في البكاء لأن المغنية يهودية. قلت له إنه شوفيني بإفراط. كان السكر قد أثر في، فاستفزيته قائلاً: «أنا أفضل ملكة الراي... الرميتي وما أدراك، فهي عربية زيادة عن عبقريتها». تدخل كمال رايس بيننا.

تمر آخر حافلة تحت نفق وسط المدينة ولا يعبأ بها أحد.

تهفت ضوضاء هذه المدينة عند مجيء الليل ويعم السكوت فيها. ويبقى الفراغ شاغراً بين مكتب البريد المركزي ودار الولاية. كانت مدينة قسنطينة في هذه السنة، أي سنة 1958، تتمظهر بورشاتها الاصطناعية فتعمل وكأنها حريصة على تشغيل آلاف البطالين. فيلاحظ الناس وجود بعض الرافعات هنا وهناك وخروج بعض العمارات من الأرض وهي لا زالت في صدد الإنجاز، محاطة بأحبكة من الخشب المنخور وقد غطيت كلها بملصقات تنادي بالسلم وتوقيف القتال. وتبرز هذه الملصقات من خلال شعاراتها الاستعمارية وألوانها الساذجة. فتختلط الألوان بالكلمات وكأنها منبثقة من مادة الخشب نفسها. فتغلق هذه الأسوار الخشبية كل منفذ لمن أراد رؤية أو مشاهدة الأفق حيث تظهر الصخرة المبنية عليها المدينة.

قسنطينة تعبق دائماً بروائح البخور والأقمشة القطيفيّة ورؤوس الخرفان المشوية على الجمر، بطريقة تقليدية.

فلّاح من أغنياء الحرب يهدينا بضع كؤوس من الخمر وبضعة غلايين من الحشيش. يبتهج هنري كوهين لهذه الهدية ويغتنم الفرصة كاملة. معروف عنه شحه. لكن أباه فقير وله تسعة أولاد. لذا كانت أمي تعطف على صديقي اليهودي وتشبعه حلويات وتقدم له بعض النقود من حين لآخر. كان أبوه حارساً في نادي الطيران. المحششة حيث نقيم ملتصقة بالسور الذي يحيط بالمدينة وقد شيده صالح باي سنة 1848 ليمنع دخول الفرنسيين واستيلاءهم على

المدينة المحصّنة. رائحة الإربيان المقلي تفوح وتملأ الجو دخاناً دبقاً.

نتصالح أنا وهنري كوهين بعد المشاجرة الصغيرة. المدمنون على الخمر والحشيش يبدون طيبين، سلميين ومسالمين. تتوسط المكان شرفة عتيقة مسورة بدرابيز مزركش ونادر الجمال. لكن صاحب المحل حرم على الزبائن الصعود إليها نظراً لخرابها. أقفاص الدرر ذهبية اللون ومعربسة الشكل. تبرز الشبابيك من الظل كلما مرت سيارة أمام المحششة فتسلط عليها أضواءها الساطعة. الزبائن هزيلو الأجسام وسميكو العضلات. الدخان يتصاعد بغزارة. الجدران جأباء اللون. الشرطة الاستعمارية لا تهتم بمثل هذه الأماكن.

المعلم بدين الجسم، غليظ الصوت، وأصلع الرأس. ورغم مظهره المتخنث فهو حامي الضعفاء. يعتبر وجودنا نحن الثلاثة شرفاً عظيماً. رجل أسود البشرة، سمين الوجه يدخن نرجيلة على مهله ويحرس بعناية قفصاً رائعاً موضوعاً بجانبه ومملوءاً بالكناريا الصامتة والمتغنجة.

تزين الجدران المقشرة، صور عديدة تمثل نساء عاريات لكن لا أحد يهتم بها، ما عدا كمال رايس الذي لم يتوقف عن التحديق فيها. يسخر منه هنري كوهين ويعاتبه على ثديي سليمة المالكي الضخمين. أفضل الصمت وأبقى محايداً. يتراكض الذباب ويتراكب فوق مرآة محطمة ومثلومة وقد ألصقت أجزاؤها. النشوة تعمنا نحن الثلاثة من

فرط الخمر والحشيش. تغني رينيت الوهرانية قصيدة لعمر الخيام: «قطرة الخمر خانة على خد جمالك أنت». ونحن نحفظ له كل قصائده ورباعياته وسبع وعشرين طريقة لحل المعادلات الجبرية من الصنف الثالث وذلك نظراً لعبقرية كمال رايس في مادة الرياضيات. فهو دائماً الأول في القسم وهنري كوهين دائماً الثاني وأنا دائماً الثالث. إن كمال رايس مهووس بالرياضيات وبمومسات أكبر ماخور في قسنطينة. أما عن مراوغاته بالنسبة لسليمة المالكي فهي من باب المظهر، وهو يتحمل هذه العلاقة رغم أنفه. لكنني قلق منذ أن علمت أن جان كوهين بدأت تتعلق به شيئاً فشيئاً.

وبعد مرور ربع قرن على هذه الفترة أحاول إغراء صرّاء وأخذها معي إلى محششة سرية في تيميمون وذلك حتى أقص عليها روائع تلك الفترة التي رافقت سن المراهقة وسن الشباب. كم سكرنا وحششنا أنا وكمال رايس وهنري كوهين، أثناء تلك السنوات!

رفضت صرّاء اقتراحي وقالت: «أنت خطير كتشرب الفودكا وأنا خطيرة كنتكيف الحشيش!» لم أفهم معنى كلماتها إلا فيما بعد. وفي إحدى الليالي قبلت مرافقتي إلى هذه المحششة حيث تقضي مجموعات الغناء الليل بأكمله في الطرب والرقص الطقوسي ويسمى عندهم بأهل الليل. وكان يردد في الأعراس والأفراح والمواسم الدينية والطقوس التقليدية وغيرها من الأمور.

كان الطقس حاراً في ذلك اليوم والزوبعة الرملية عاتية، فتعطلت الحافلة عندما كنت أحاول تسلق كثيب يبلغ مائة وخمسين متراً من العلو وكان مشهوراً عند أهالي تيميمون بمناعته وعسره. ولقد حاولت تسلق هذا الكثيب بالذات لغرز الخوف في قلب صرّاء ولا لشيء أو غرض آخر. بقيت ثلاث ساعات وأنا أحاول الخروج من الرمل واستعملت لذلك طريقة تقليدية لأني لا أحمل معي أي رافعة ولا أية آلة تساعدني في هذه المهمة. وكانت صرّاء تعاونني في هذا العمل الشاق.

أما الزبائن الآخرون فقد صعدوا على سطح الحافلة ومكثوا هناك يشاهدون الصحراء مدة طويلة وقد غمرتهم الفرحة وصرعتهم نشوة الخلاء العاري. قلت لصرّاء: «هكذا يصبح الإنسان مجنوناً أو متصوفاً». ضحكت دون أي حماس.

وبعد وجبة العشاء أكلناها في أحد الفنادق جاءت صرّاء إلى غرفتي حيث كنت أتردد في فتح قنينة فودكا وطلبت مني أن أرافقها إلى تلك المحششة الموجودة في تيميمون. فلبيت دعوتها فوراً. فتغير مظهرها بعد أن لبست فستاناً جميلاً وقد طرّت وجهها وزينته بأناقة وحذق. استأت نوعاً ما لهذا المظهر إذ أنني كنت أفضلها بدون تزيين ولا فساتين. ولكن رغم كل هذه الأناقة برزت طبيعة صرّاء الفطرية من خلال جسمها المترجل نوعاً ما وصدرها المبسط وأطرافها الطويلة.

لما وصلنا إلى عين المكان كان الجو متهيجاً. شاهدت أحد الشيوخ وهو يقود المجموعة الغنائية. امرأة عجوز تكيل كميات الحشيش لكل زبون حسب إمكانياته وطاقاته على التدخين. كان الإيقاع الموسيقي يتماشى وحركات الراقصين وهم يدورون حول أنفسهم كالدراويش. وكانت الترنيمة تتكرر على نفس الوزن الموسيقي فتحز الرؤوس وتبعث في الأرواح نوعاً من النشوة الجارفة والابتهال الرهيب والتصوف المعدي. رأيت صرّاء تدخن غليوناً مملوءاً حشيشاً وفهمت بسرعة أنها متعودة على هذه الطقوس. جلست بقربي على بساط كان يغطي الأرضية الرملية. خفت أن ألمسها دون قصد فنمت في جسمي قشعريرة شبقية رهيبة. أخذت هي بدورها حذرها مني. تساءلت: من أين لها هذه المهارة في تدخين الغليون؟ صعدت إلى أحشائي الغيرة. فغمرتني. لأول مرة في حياتي أحس بهذا الانطباع وأعاني منه. كأنني سقطت في مطبة العشق والشهوة الجنسية. إعصار جارف يهزني، يتسلط علي فجأة ويحطم كل هذا الخوف والتذنيب والغثيان الذين كنت أشعر به كلما اتصل الأمر بالمرأة. كنت أخاف النساء. كنت خنثى وها قد تغير الحال عليّ، فأصبحت أموت عشقاً وحباً أكنهما لفتاة لم تتجاوز بعد العشرين. ولعل هذا الموقف من النساء بدأ يوم وفاة أخي الأكبر. كان يراهن بحياته على الطريقة البهلوانية. احترفت فيما بعد قيادة الطائرات العسكرية وحاولت كل جهدي من خلال

المناورات البهلوانية التي كنت أقوم بها على متن الميغ 21، أن أسقط الطائرة وأنتحر وأنتهي هكذا وأتخلص من هذا العصر اللعين. أردت أن أقلد أخي فأموت انتحاراً مثله. لكن لم أجرؤ على ذلك!

شعرت بنوع من القلق يتسلل إليّ طوال هذه السهرة الرائعة مع جوق تيميمون. لاحظت أن صرّاء كانت تنظر في اتجاهي بشفقة ورأفة كبيرتين لكن لم يجدني هذا نفعاً. كما لم يؤثر في الحشيش أي تأثير. أما الفتاة فكانت في قمة النشوة وفجأة أخذت ترقص داخل الحلقة المكونة من المغنيين والعازفين على آلات صحراوية نادرة. أبقى معزولاً ومسكيناً. أشعر بالحاجة إلى شرب الفودكا تغمرني بعنف. رفضت أن ألبي شهوتي المرضية. أنظر إلى صرّاء وهي ترقص مع المجموعة المتكونة من زنوج المنطقة. كانت صرّاء رائعة وقد أثر فيها الحشيش وطغى عليها جو الطرب، فبانت لي حرة ومتحررة ومسعورة في آن. وبسرعة فائقة وقع اختيارها على أحد المطربين وكان شاباً جنزياً رائع الجمال، دقيق السمات وعازفاً بارعاً على آلة الأمزاد وهي من أصل طرقي. أخذت صرّاء تغازله من خلال الرقصة الطقوسية، ففهمت أنها لن تعود إلى الفندق برفقتي فقررت الإنسحاب بسرعة وتركت المكان تحت أنظار الحاضرين وكنت أعرفهم واحداً واحداً ويعرفونني كلهم معرفة جيدة، منذ تلك السنة المعهودة، عندما اشتريت حافلتي.

عدت بمفردي إلى الفندق. صعدت إلى غرفتي. أخذت قنينة فودكا. تربعت أرضاً أمام غرفة صرّاء. بدأت أسكر بطريقة استفزازية. وقد أخذتني الغيرة لأول مرة في حياتي. شعرت بأنني أتصرف على طريقة الذكور المتغطرسين والمتطاولين على النساء بفحولتهم الحمقاء. كنت أعلم أنها لن تعود هذه الليلة ولا أثناء الأيام المقبلة، لأنها عشقت العازف الزنجي وكان يتقن العزف على آلة الامزاد وقد عبرت المسافة بين الهقار ومنطقة قورارة حيث واحة تيميمون من خلال القرون والغزوات والعواصف الرملية والحروب والمغامرات الغرامية.

ولما دقت الساعة السابعة صباحاً، وجدت نفسي متورطاً في حالة سكر رهيبة. وبطبيعة الحال لم تعد صرّاء إلى المنزل. فهمت أنها لن تعود قبل الاستمتاع بعشيقها استمتاعاً شبقياً وجنسياً رهيباً. وكان هذا من حقها، هي الفتاة الرائعة الجمال، النادرة المزاج والمتحررة التصرفات! كنت أشعر بنوع من النشوة تخالجني ممزوجة بالغيرة. كنت سعيداً لتصرفات صرّاء وكنت في نفس الوقت أغير منها. قررت أن أؤجل المرحلة القادمة وأن أترقب عودة صرّاء. أشعرت الزبائن الآخرين بهذا التغيير ونصحتهم قضاء يومهم في زيارة واحة تيميمون ثانية وعلى وجه الخصوص التركيز على نظام توزيع المياه بطريقة ماهرة حيث أن هذه الواحة تملك أتقن وأبرع نظام «الفقارات» الذي تعرفه الصحراء.

وبعدها جاءني صاحب الفندق بالجرائد اليومية التي وصلت بالطائرة من العاصمة، منذ ساعة:

تسبب انفجار قنبلة وضعها الأصوليون في مطار الجزائر العاصمة في مجزرة خلفت تسعة قتلى وأكثر من مائة جريح جلهم في حالة خطيرة...

صعدت إلى غرفتي بسرعة. تقيأت كل الفودكا التي شربتها البارحة. أخذني الغثيان أمام هذه المجزرة الشنيعة. استلقيت على فراشي ونمت نوماً عميقاً خالياً من الكوابيس. دام النهار كله.

قررت إذن أن أترقب عودة صرّاء في واحة تيميمون الجميلة والخلابة. تيميمون حيث القنوات الناقلة للمياه يفوق طولها المئتي كيلومتر. وقد حفر هذه القنوات عبيد سود أتي بهم من السودان منذ قرون عديدة، من خلال طبقات الصلصال والخث المتراكمة الواحدة فوق الأخرى، وجاءت هذه الطبقات منحدرة بطريقة متعاكسة في اتجاه شرق ـ غرب. وكانت تيميمون تملك قنوات على شكل أمشطة متشابكة ومتقاطعة تتخلل الواحة كلها، فالبساتين الصغيرة. ويستجيب نظام توزيع المياه هذه إلى تحليل توافقي كثير التشعب وتفاضلي الحساب سينبهر له صديقي كمال رايس لا محالة إذا ما اكتشفه.

وكل عملية توزيع المياه تخضع إلى القدرة على السيطرة على المنسوب الجوفي الأصلي، فيتفرع إلى منسوبات جزئية تتفرع هي الأخرى إلى قنوات جديدة لا يمكن حصر عددها نظراً لكثرتها وتشعبها. كنت آمل أن أعرف صرّاء بهذه الواحة التي اشتغل بها بالي منذ أن زرتها

في زيارتي الأولى. لكن صرّاء تركتني لحالي وهربت علي. فأترقبها والغيرة تنخر أحشائي، فأتخيلها وهي تمارس الجنس مع عشيقها الزنجي بعنف وجنون. أترقبها إذن وعند رجوعها سوف أستأنف الرحلة حاملاً زبائني على متن حافلتي التي أقودها عبر الصحراء بحذق ومهارة.

تيميمون عبارة عن قصر بربري عتيق مبنية أسواره بالصلصال الأحمر والمحبحب، فسميت بالواحة الحمراء. ويتربع هذا القصر على صخرة تشرف من أعلى أمتارها العشرين على الواحة. ويملك القصر مسجداً قديماً رائعاً ذا صومعة تبان وكأنها حذرة من كثرة الغزوات التي كانت تتسلط على القصر، قديماً؛ بالمرصاد لكل طارىء آت من الصحراء التي تحوط بتيميمون. تلك الصحراء التي تزخر بكثبانها الرملية والزعفرانية اللون والمتحركة بسرعة فائقة رغم أحجامها الكبيرة، وطرق الملح والذهب القديمة، وواحاتها التي شاهدت موجات اللاجئين إليها من بربر وزنوج ويهود ومسلمين، على مر القرون، فيأتون إليها ويختفون فيها ثم يستوطنونها فيجعلون منها جنة على الأرض. تلك الجنة التي ابتلعت صرّاء منذ أيام.

وبعد أن استفقت من سباتي العميق بقيت هكذا مستلقياً على فراشي غير قادر على القيام بأدنى حركة، مصدوماً بخبر المجزرة التي تسبب فيها الإرهابيون الإسلاميون في مطار العاصمة. بقيت هكذا أترقب عودة صرّاء حتى أن سمعت قرع أقدامها على أرضية الممر، فسعدت برجوعها

سعادة جبارة، رغم غيرتي وحقدي عليها. ثم فاجأني الغثيان من جديد، فتقيأت المرة تلو الأخرى.

وعندما أتقيأ أتذكر دائماً مشهداً راعني وأنا طفل، عندما اكتشفت لأول مرة دم الطمث النسوي. رأيته يسيل ببطء على ساق أمي. ظننت في أول الأمر أنها مجروحة جرحاً بالغاً وأنها ستموت لا محالة. انتابني خوف طفولي وهلع صبياني. كانت أمي جالسة في الحديقة على كرسيها المعتاد وقد رفعت أطراف فستانها على أطرافها من فرط الحر السائد يومها. كان الفصل فصل الصيف وكان القيظ رهيباً. كانت أمي لاتعي أي شيء وهي على هذه الحالة والدم يسيل أكثر فأكثر، فيكون بقعة صغيرة من الدم على أرضية الحديقة حيث كانت أمي جالسة. وفجأة شعرت أمي بالكارثة فنهضت مسرعة، مهرولة وقد أحمر وجهها من فرط الخجل. لكن لهذا الغثيان المزمن والبرودة الجنسية اللذين كنت أعاني منهما، أسباب أخرى.

كنت في الثامنة من عمري. اكتشفت في يوم من الأيام خرق الحيض الملطخة والموضوعة في كيس الغسيل، وراء باب المطبخ. كانت لطخات الشمس تضيء هذا المنظر بعنف. فاجأتني إحدى خالاتي وأنا في حالة ذهول. صفعتني ووبختني وطردتني من المكان. لم أتمكن من تركه نظراً لأن كُلَاتي الزجاجية بقيت مشدودة تحت الكيس. يومها فهمت معنى الطمث! تقيأت إثرها مدة ساعات وانتابني الغثيان، فعشت هكذا أول صدمة في حياتي خلفت

كوابيس وعقداً وتصرفات مرضية، فنفرت من النساء والجنس على إثر هذه الواقعة. كنت أحلم نفس الحلم المتكرر كل ليلة فأشاهد في منامي نساء ميتات بعد أن فرغن من دمهن الشهري المتساقط على الأرض فيكون غدراناً صغيرة سرعان ما يتخثر فيها الدم تحت وطأة الحر.

منذ ذلك الإكتشاف ساورني هاجس مرضي رهيب، إذ قررت نهائياً وأنا ما زلت طفلاً، أن النساء متكونات من سلالة خاصة وتحملن كلهن جروحاً بليغة لا يمكن تطبيبها أبداً. فهن إذن ضحايا غير واعيات بمرضهن فكان عليَّ أن أتجنبهن نهائياً. كنت أخاف كذلك خوفاً غير عادي، عند مشاهدة الشقوق المحمرة والمزغبة، المنبثقة من بين أفخاذ الجارات الصغيرات وهن يمرطن فروجهن على سطح المنازل، عند القيلولة، بطريقة متكلفة وشاذة. كان يأخذني الذعر، كذلك، عندما أرى تلك الانتفاخات النسوية على شكل جوزات ضخمة حيث البرض يكون نوعاً من الجعبة المحبحبة الشكل والرمادية اللون.

كانت الظلمة تعم بستان الفندق بتيميمون، تدريجياً وبطريقة بهيجة يتخللها شيء شبقي الاستنشاق. بان الأفق بعيداً وقريباً في نفس الوقت، تكاد تمسه أصابع السوح وكأن الشمس سقطت فجأة وراء جدران الحديقة ثم وراء أسوار القصر، ثم وراء أشجار النخيل. ثم تفتتت بقايا ورواسب الضوء رويداً رويداً وكأنها توزعت ذحى الأشجار. فظهر كل هذا الغروب وكأنه صورة مستعارة تلخص الكون بأسره.

كانت صرّاء تحاول منذ ساعات عد العصافير الراجعة إلى أوكارها والمتوجهة نحو أشجار النخيل الضخمة، فتحسب أن هذا النخيل لا يصلح إلا لايواء العصافير. بدأت تعبر عن طفراتها ونزواتها وأفكارها المسبقة بالنسبة للصحراء ومناخها وطقوسها. لاحظت أنها تتجنب قراءة الصحف اليومية الآتية من العاصمة وكانت عناوينها تعبر أحياناً عن موجة الإرهاب الأصولي الذي ساد بعض مناطق البلاد. خدشت أغصان إحدى النخلات شباكاً قريباً من مكاننا. تعتم الليل أكثر فأكثر.

نظرت إلى صرّاء وهي تشاهد عصفوراً محلقاً الهوينا وكانت أجنحته مفتوحة على مصرعيها، فيحركها بشيء من الغرور والخفة والبهجة. وكأنه يريد تحدي هذه الطبقة الليلية وهي على وشك ابتلاعه من حين لآخر. رأيت عنق طائر آخر وكأنه معلق بمساك غسيل على شريط الأفق وقد بدأ يتقلص شيئاً فشيئاً. كانت أجنحة العصافير تبدو وكأنها مطلية بمسحوق ملون بعدة أنماط التلوين. أحدهم يرسم بجناحيه خطاً محبحباً ومغبراً على عشب البستان. زقزقة العصافير تتبخر رويداً رويداً في الجو الناصع ضيائه رغم غروب الشمس منذ فترة طويلة.

بدأت الغضايات الساكنات تخرج من غيرانها ببطء وتتصدر وسط الجدران. رأيت الغضاية الأولى تزدرد الحشرة الأولى بشراسة. تبقى الغضايات تنتظر فريستها الساعات الطويلة، فارغة الأعين، حابسة الأجسام وكأنها

لا تتنفس حتى إذا مرت حشرة بالقرب من خطمها، فتنطلق بسرعة البرق ثم تسترجع مكانتها وانتظارها بدون إحراج أو قلق وتبقى جامدة بدون حركة. لاحظت أن صرّاء كانت تشاهد هذا كله باغتباط. لم أستغرب ذلك.

كان الليل الصحراوي يزداد عمقاً وشبقية وصلابة. صعد القمر إلى السماء صعوداً. اقترب الشفق وابتعد. كان القمر بلوري اللون، مستدير الشكل، مصقع المظهر. كاد أن يمسى شجرة ورد ضخمة وعارشة، متسلقة كل الجدران المحيطة بها. وكأن صراء تريد لمس العصافير التي اختفت داخل هذه الوردة المزدهرة واليانعة. سمعت أصواتها تتصاعد موشوشة، مخوافة، مرتعشة، متناومة ومتقلقة. وذلك هنيهة قبل السقوط في نوم خفيف وخادع وذلك لأن عصافير الصحراء كثيرة الحذر والاحتياط والأرق.

وكانت كل هذه الآثار والرواسب تصلنا قبل أن تدخل العصافير في أوكارها المخفية بين أغصان أشجار الورد وأشجار النخيل، المتطاولة والملتفة حول نوافذ الفندق، تحت تأثير غزارتها وخصوبتها، أو تحت تأثير جاذبية لامرئية.

أما ما تبقى من العصافير فأخذ موقفه على حافة السقف المقابل. كانت كثيرة فغطت السقف كله بريشها وأجنحتها. فكنت أتخيلها وقد شربت أكثر من كأس فودكا أنها شرسية المزاج، مشاكسة الطبع، متمظهرة الفطرة وتمثيلية الطقوس والعادات. لكن ما أروعها! كان يخال لي

أن كل هذه الزقزقات والوشوشات المنبثقة من أوكار العصافير ما هي إلا ملخص لبكاء وآهات وأنات عائلتي ليس فقط بل تعاسة وشقاء البشرية جمعاء وهي تتخبط في الحروب والآفات والكوارث والإرهاب مثلما هو الأمر بالنسبة لبلدي:

شغالة منزلية في السادسة والأربعين من عمرها وأم لتسعة أطفال تغتال رمياً بالرصاص وهي عائدة إلى بيتها...

وأصبحت حياتي المتعثرة لا تطاق، فأرفض كل هذا العنف المخيف وهذا الإرهاب المتوحش. كما تضيق نفسي بكل هذه المناورات السياسية والسرقات المالية والمعاملات «المافيوزية». فيما كانت عصابات الحشاشين تفرض وجودها من خلال العنف فلا تقتل إلا المثقفين الأبرياء والمواطنين البسطاء، بطريقة عشوائية وعمياء. وما أن أعود إلى مدينة الجزائر حتى أتيه وأفقد توازني وحس الواقع. كنت أغير مسكني مرتين في الأسبوع وأعيش في حالة حذر وخوف واحتراس رهيبة. فلا أفارق جفينات السيانور الخمس، أحملها كل يوم في جيب. من يدري؟ لعلي سأجرؤ في يوم من الأيام على ازدراد إحداها... لكن ما أتفة مذاق العدم!

فتأتي صرّاء وتزيد في طينة همي وشجني وشقائي بلة.

V

أعترف بأنني أكره رؤية وجهي في المرآة، فما جدوى ذلك؟ منذ البداية لم يفارقني هذا الوجه. منذ الطفولة وأنا أحمله دون أن يتغير. يتراءى لي هذا الخطم المثلوم من حين لآخر على صفيحة المرآة الارتدادية داخل الحافلة عندما أقوم ببعض المناورات لتجنب الترمل في بعض الدروب الوعرة. وإذا ما طرأ ذلك، يفرح السواح لأنهم يأملون حدوث أي مغامرة ويترقبونها بفارغ صبر. فيسرعون عندها إلى إخراج آلات التصوير والكاميرات والأفلام والأوراق لتصوير بعض المشاهد المفجعة. فتنتابهم آنذاك رعشة فيها لذة وخوف وتردد. يظنون أحياناً أنهم سيبقون في وسط الصحراء أياماً طويلة دون مساعدة فيقتلهم العطش والجوع والحر والبرد. ويتخيلون أنفسهم وقد هلك البعض وبقي البعض الآخر على قيد الحياة، فيأكل الأحياء لحوم الأموات، كما قرأوه في كتب المغامرات والمجلات الرديئة أو كما شاهدوه في بعض أفلام الرعب. لكنني أصبح

العطب بسرعة إذا كان الأمر يتعلق بالمحرك وأخرج الحافلة من الرمال إذا كان الأمر يتعلق بترملها. كما يحدث أن أترمل أياماً وليالي، ذلك أن «شطط» ليست حديثة العمر. فرغم كل التحسينات التي أدخلتها على محركها الذي أصبح كثير السرعة، تبقى الحافلة آلة ضخمة، مهترئة الإطار وهي قد تجاوزت الأربعين سنة، مثلي أنا وقد بلغت الأربعين كذلك. وفي حقيقة الأمر فإن «شطط» تشبهني كثيراً!

لقد اشتريتها منذ عشر سنوات في جنيف بثمن ألف فرنك سويسري، لا أكثر! وقد دفعت نفس المبلغ لسد ثمن زجاجات الفودكا التي تجرّعناها أنا وصاحب الحافلة الأصلي. وكان قد ندم بعدما باعها وبعدما وقّعنا العقد، فأخذ في البكاء وكأن الحافلة ابنته. ولم يكن لها اسم آنذاك ولم أسمها «شطط» إلا أثناء سكرة أخرى جرت أحداثها في إحدى حانات الجزائر العاصمة، برفقة كمال رايس وهنري كوهين وقد ساهما معي في ايجاد هذا الاسم الذي يعرف بها بدقة. فيما بعد رسمت على جانبيها نخيلاً ضخماً ومتشابكاً بألوان قبيحة: «وردي مثل البنبون وأخضر مثل الفستق». أكره هذا النوع الساذج لكن أصدقائي أكدوا عليَّ أن السواح يحبون كثيراً مثل هذه الرسومات المتميعة والمترهلة.

أكره إذن رؤية وجهي في المرآة. لكن أنا مجبور على ذلك لأن حافلتي «شطط» تحتوي على العديد من المرايا الارتدادية، داخلياً وخارجياً. وعندما يفاجئني ظهور وجهي

على صفيحة إحدى المرايا، يأخذني الهلع ويدخل فيَّ الرعب وتخلخلني المفاجأة. لقد ورثت هذا الوجه منذ ولادتي! لا أتذكر أنني امتلك وجهاً غير هذا الذي أحمل منذ الأزمنة الغابرة ولعلني ابتليت به، بالأحرى، منذ أن فوّت أخي الأكبر درجة الترامفاي فداسه ومات شر ميتة بعد أن لعب دور المهرج طيلة حياته القصيرة. . . كنت دائماً أكسب هذا المظهر الكئيب، التائه والباعث على الشفقة.

وزادت السنوات التي قضّيتها في الطيران العسكري، زادت في الطين بلة. وكذلك الصحراء التي لم أفارقها منذ عدة سنوات، ما عدا بعض الزيارات الخاطفة إلى حانات الجزائر وقسنطينة حيث أسكر بصحبة كمال رايس وهنري كوهين اليهودي. ولم يتغير مظهرهما كذلك، فبقيا هكذا على شكل مراهقين موهوبين. وأنا كذلك لم أتغير البتة.

أما عن الصحراء، فلا تحدث. فهي تجفف البشرة وتعطي صبغة الشيخوخة لكل من أقام فيها وعمر. الصحراء تقلص القامة وترهل السمات وتجعد البشرة. فأظهر بمظهر مدعوك، مفروك بقامتي الطويلة ورأسي الصغير ووجهي الشاحب تحت تأثير الزوابع الرملية.

لكن السبب الأساسي يعود إلى الإدمان على شرب الفودكا التي خلفت آثاراً رهيبة على شكلي فجاء عنقي هزيلاً كعنق الدجاجة المريش، وهو يسبح داخل ياقة قميصي، وجاءت عينايا مضببتا النظرة وجفنايا ثقيلان وسميكان ومرقطان وكأن أشفارهما قد احترقت في يوم من

الأيام. كما ظهرت جوزة عنقي على منوال قفل من الورق المنشى، تدور على نفسها كلما نطقت بكلمة. فأشبه هكذا السلحفاة المسنة وقد نخل عنقها بنمش مصفر اللون. فجاء جسمي عبارة عن كومة لدنة من الأشياء الرخوة والأشياء الجافة والعضلات المجلدة والممسوكة بمساسيك الغسيل حتى لا ينهار كياني كله، فجأة وبطريقة كارثية ومأساوية.

لعل صرّاء تظنني شيخاً هرماً وغلماً أصابه مس من الجنون فراح يعشقها هي الفتاة الشابة والمفرطة الجمال. لم أعترف لها بحبي أبداً! صُمّ بُكم أخاك! ولكن إحساسي نحوها واضح وضوح الشمس في أوج النهار. فأبقى هكذا كالمسعور أتيه في حبها وأموت خجلاً وارتباكاً ورعونة. أمضي بجانبها كالفزاعة المرعبة، السكيرة، المتململة والدبقة، على وجه الخصوص، دباقة رهيبة. أكره نفسي فأتغاثى منها وأتقزز. والمضحك في الأمر أنني غير قادر حتى على تقبيل صرّاء إذا طلبت مني أن أفعل ذلك، لأنني لم أقبل امرأة ولو مرة واحدة في حياتي، أبداً! أخاف أن أدخل عليها الفزع فأرهبها إرهاباً:

الكاتب الكبير طاهر جعوط يغتال برصاصتين في رأسه من طرف ثلاثة إرهابيين وهو يقود ابنتيه إلى المدرسة.

... أخاف أن أرهب صرّاء إذن بمجرد لمس يدها. ومهما يكن فأنا لست قادراً على ممارسة الجنس. أتخبط دائماً في خضم هذه الأمور والأوهام الهزلية والمضحكة، خاصة وأن هذا الكدس من الأشياء الرخوة والصلبة في آن

واحد والتي تمثل، مسبقاً ما أسميه بجسمي، لا يبقى ثابتاً إلا بقدرة ثيابه وهي تمثل العلامة الوحيدة والحجة الفريدة أنه تحت هذه الملابس ثمة إنسان يحترق عشقاً رغم أنه عاش مدة ربع قرن تقريباً لا علاقة له بالنساء ولا بأمورهن. إنسان تخبط منذ البداية في مشاكل الحياة ومآسيها فيخاف ويخجل ويرتبك لأدنى سبب.

إنسان عاش خنثى طيلة أربعين سنة دون أدنى علاقة عاطفية أو جنسية مع امرأة، تذكر. إنسان كرس حياته للعدم والغثيان والقلق. إنسان فقد أخاه الأكبر في حادث من حوادث المرور، بطريقة بهلوانية، لا تصدق. إنسان أدمن على شرب الفودكا منذ المراهقة. إنسان تسلل داخل نوادي الطيران بمساعدة اليهودي ألبير كوهين وكان حارساً عليها. إنسان مهر في قيادة الطائرات النفاثة والمطاردة من نوع الميغ 21 و28 ومن نوع سوخوي مدة عشر سنوات حتى طرد من الجيش لتصرفاته الجنونية، فكان يسرق، من حين لآخر، طائرة ويطير بها إلى مدينة الدار البيضاء أو بروكسيل أو جنيف أو باريس، لا لشيء سوى لمقارعة الكحول في حاناتها الفخمة. إنسان كان يرسل إلى أبيه بطاقات بريدية من تلك العواصم، لاستفزازه والانتقام منه هو أبوه الذي كان كثير السفر والتنقل فتعود على إرسال بطاقة بريدية من كل مدينة يزورها بسبب أعماله التجارية. إنسان سقط في شباك الحب لأول مرة في حياته بعد أن بلغ الأربعين، فلا يني يلتقط الصورة تلو الأخرى لتلك الفتاة، وهي سبب

همومه وتيهه. إنسان يشعر بموجات من العنصرية العرقية تهزه هزاً لأنه يغار من عشيق صرّاء وهو أسود البشرة، رائع الجمال، يمشي ملكاً!

وقد تحصن هذا الشاب العازف على آلة الأمزاد الطرقية داخل الحافلة وأصبح عضواً من أعضاء المجموعة المسوحة. لم أفه بأدنى الكلمة في هذا الموضوع. تركت صرّاء تتصرف. اقترحت عليَّ تعويضي مالياً بالنسبة لوجود عاشقها. رفضت هذا بكبرياء وأناقة. قلت عليَّ أن أتحمل وجوده حتى انتهاء الرحلة، عندما نعود إلى العاصمة.

ومنذ أن سقطت صرّاء في الحب لم تن استراق النظرة في اتجاهي من خلال المرآة الارتدادية. وكأنها ترغب في التفتيش والبحث في وجهي المعطوب المبعج وقد شاخ قبل أوانه، وكأنها تريد كذلك اكتشاف آثار الألم والغثيان والعدم الموجودة عليه. لكن دون جدوى. ذلك أن وجهي هو عبارة عن صفيحة لا يتغير منظرها ولا تدلي بأسرارها، صفيحة مرسوم عليها الشقاء والفشل، إلى الأبد!

وصرّاء هي بدورها كذلك، كتومة. لا يقرأ على وجهها شيء. لم أر أبداً آثار الانفعال عليه! العدم. . . لا وجود لأي إشارة تدل على انطباع ما. أحدّث نفسي فأقول إنها قاسية وظالمة. فأنا هو الشخص الذي أخذها إلى تلك المحشثة حيث تعرفت على عشيقها هذا! لاحظت أنها تهمله نوعاً ما ولا تعتني به كثيراً. لكن هذا من صلب استيهاماتي، بالتأكيد! أحلم بأنها لا تحبه ولا تشتهيه، حتى

لا أتألم أكثر. منذ أن فقدت صرّاء بسبب وجود هذا الشاب الزنجي، سقطت ثانية في عزلتي المعتادة. عدت إليها وعدت إلى استيهاماتي وهواجسي الخاصة بالنساء وكرهي لهن. أصبحت مهووساً بضرورة بتر قضيبي. أقصه وأرتاح! أقصه وأتخلص منه! وأنا لا حاجة لي به ولا أية مصلحة ولا أية صلاحية! طريقة أخرى في ممارسة الانتحار...

كنت أشعر أثناء هذه الرحلة الصحراوية بأنني متروك ومهمل ومنسي، في قعر روحي وفي قعر جسدي وفي قعر حافلتي.

عاودني الشعور بالعزلة مثلما كان الأمر عندما كنت مراهقاً. فما أن يتركني أصدقائي، حتى ينصب علي الخوف والانقباض. أتيه في المدينة فأظن أنها ستسحقني تحت مبانيها ومؤسساتها ومنازلها. مدينة قسنطينة، تلك المدينة المبنية على سطح صخرة ضخمة. فتظهر وكأنها مائلة. قسنطينة الغالية بقناطرها المرفوعة في السماء وجروفها الرهيبة وقصبتها العتيقة المفروشة على حافة الجبل الصلصالي والصخرة المتهرئة. قسنطينة حيث اكتسبت هذا الوجه البالي وهذه السحنة الشاحبة منذ سن المراهقة. قسنطينة حيث الإغراء بالانتحار يهيمن على سكانها، أكثر من أي مدينة أخرى.

وتأخذني نفس النشوة عندما أنظر إلى تيميمون كلما اكتشفها من بعيد وأنا أقود حافلتي. وهي عبارة عن تفاصيل

مراكمة بوضوح، فيخال للإنسان أنه يتحطم نظراً لتراكم كل هذه الأحجام الصفراء والحمراء والصلصالية والخضراء التي تنحدر من أعلى إلى فوق. أو العكس! فتبرز تدريجياً المدينة الجديدة ثم القصر العتيق ثم الواحة اليانعة، الفضة. وبتغيير الإضاءة تتضبب كل هذه الأحجام وسرعان ما تتحول إلى تفاصيل مبهمة، متكسرة ومتقاطعة. لأن الصحراء بفضائها وضوئها الخاصين، تقلص الأشياء وتعطيها صبغة تقريبية وتبسيطية.

وقصبة تيميمون يمكن أن تلخص في متاهات أزقتها وكثرة شبابيكها وأسطحها وقببها وصومعاتها وأقواسها وأبوابها الخشبية وجنائنها الصغيرة والخصبة. وتأتي كل هذه الأحجام والألوان زاهية، صياحة من تكاثر الضوء المسكوب عليها وهيجان الجو فيها. ولكن ما أن تغرب الشمس حتى يصبح كل شيء باهتاً ومستصفراً. فتسيطر الشفافية على كل شيء وأمر وناس.

وبغروب الشمس، يتدحرج الواقع ويفقد سماته التي تعود عليها الناس. وتتحول المجموعة الهندسية ويتغير المعمار ويصبحان عبارة عن مجرد نقاط وهوامش وحبيبات وحزات ورقاقات مسترسلة. على غرار أشكال الأمشاط التي تخيط فضاء الواحات وتوزع المياه في كل بستان من البساتين التي هي صغيرة الحجم في معظمها. ويتم توزيع هذه المياه بطريقة دقيقة رغم صعوبة التقسيم. ذلك أن هذا التوزيع ينظم حسب معطيات لا تحصى ولا تعد، معقدة

الأسلوب وصعبة المنال. ومن بينها حجم البستان ونظام الطبقات الاجتماعية والشرائح العرقية وأشجار النسب وغيرها من الأمور. ويشرف على هذا التقسيط أمين الماء وهو رجل عاقل وعلاّمة كبير ينتخب من طرف السكان المزارعين كل ثلاث سنوات، فيحذق هذا الأمين في توزيع المياه ويستعمل في ذلك علومه الرياضية وعبقريته الفنية.

ذلك أن هذا النظام يتكون من مجموعة من الأمشاط المبنية منذ قرون عديدة بالصلصال والتبن على الطريقة التقليدية من طرف العبيد الزنوج الذين كان يستوردهم أصحاب الشأن من السودان ومن قرن إفريقيا الشرقي. وهم من سلالة العبيد الذين حفروا روافد دجلة والفرات سابقاً وشيدوا القنوات التي زخرت بها المنطقة فيما بعد. أي أثناء الفترة التي عرفتها الإمبراطورية الإسلامية وهي في أوجها وزخامتها ونفوذها.

تعبق روائح عطرة من خلال بساتين تيميمون الصغيرة وهي عبارة عن خليط من روائح الخشب المحروق والتربة المبلولة والأقمشة الخنزة والفواكه الطازجة من مشمش وتمر وتين وطماطم مجففة؛ والمواد التنظيفية من شب وغسول تستعمل لتطهير القنوات. ويقضي أصحاب هذه البساتين الرائعة وقتهم في العمل الدؤوب، لا يكلون ولا يتوقفون، فيمنعون هكذا تراكم الرمال داخل القنوات وتكاثر الأوحال والأوساخ فيها.

ولديار تيميمون سمات رائعة الجمال ومحكمة التنسيق المعماري، فتملك كل واحدة منها أسطح جميلة الشكل

وأفراناً محفورة في الأرض. وعددها ثلاثة في كل منزل. سألتني صرّاء مرة: «لماذا ثلاثة أفران في كل منزل، يا ترى؟» لم أعرف الجواب على سؤالها. فقلت فجأة: «هكذا! لعله نوع من التطير الطقوسي...» كما كانت هذه المنازل تحتوي على دورات المياه وهي موضوعة على أعلى السطح وتشعر وأنت تتبول بأنك تحمل على رأسك صفيحة السماء المكتظة بالنجوم، فتحس بنشوة تجتاحك في العمق. وكلما تركتني صرّاء أو أهملتني استنشقت كل هذه الروائح العابقة وتفرجت على طقوس سكان الواحة وعاداتهم ومنازلهم وطبخهم. ثم أعود إلى الفندق وأجلس أمام باب غرفتها وزجاجة الفودكا في يدي، فأسكر وأثمل قبل رجوعها بصحبة عشيقها الزنجي.

وقد أوصلني حبها إلى أسفل السافلين فأموت شوقاً وأتلوع تحت نار الغيرة والحسد وأعس عليها وأقيم الحراسة على باب غرفتها. فأفقد هكذا كرامتي وأنانيتي وأتيه في غياهب الحب المستحيل والعشق المسلوب والحظ المنحوس.

وكنت أتخيلها مراراً وهي تمارس الجنس مع صديقها الهجين إذ كانت تختلط في سلالته الأعراق البربرية والزنجية والعربية واليهودية. لكن خيالي في هذه المجالات الجنسية ضعيف وبديهي، فلا أصل إلى أي نتيجة، ذلك أنني لا أعرف كيف يمارس الجنس إطلاقاً! وندمت أثناء هذه الأيام، وفي أول مرة في حياتي، شر ندمة لأنني فوتت معاملة النساء. ففاتتني أجسامهن وحنانهن وطراوتهن

وعشقهن. ثم أسقط بسرعة في هواجسي المرضية فأخافهن وأتقزز منهن وأستعيد حالتي العادية، فأصبح من جديد رجلاً خنثى، يابس العواطف، مملوءاً بالتناقضات وعقد التذنيب. فأفقد هكذا بصيرتي.

وفي حدائق تيميمون وجنائنها أسترجع ذكرياتي أثناء الطفولة والمراهقة والشباب، بروائحها التي كثيراً ما تشبه الروائح التي تعبق بها واحة تيميمون. تلك الفترة من حياتي التي نغصتها وفاة أخي المزرية. وقد لبست أمي الحداد على طريقتها الخاصة. فلفت رأسها في خمارها البربري الرائع، وقبعت هكذا سنة كاملة دون أن تتحدث عن ابنها المفقود ولا عن ظروف وفاته. فقد أغلقت على نفسها كل المسالك من فرط الصدمة والكدر، وانعزلت في غرفتها حيث تجلس إلى آلة الخياطة وتنهمك في عملها ليلاً نهاراً.

أو بالأحرى، كانت تجلس إلى آلاتها المختلفة من كثرة ما كان أبي يشتري لها كل أنماط آلات الخياطة رغم احتجاجات أمي الساذجة والمتكررة. وكأن أبي يريد هكذا تقييدها بهذه الطريقة الماكرة حتى تبقى زوجته منهمكة في أشغال الخياطة، منكبة على آلاتها التي كان يأتي بها من كل أنحاء العالم. فيشتري أحدث الأشكال، فيشدها هكذا ويراقبها من بعيد فلا تعلم شيئاً عن شطحاته وشذوذه وعشيقاته ومعرفته الموسوعية وإقاماته العديدة في السجون لأسباب سياسية.

وتبقى أمي إذن في غرفتها مسمرة منهمكة على آلات الخياطة الجهنمية هذه حسب إرادة أبي. ولا يتعكر مزاجه

اللطيف، يسوده الصبر المفرط وبرودة الأعصاب على عكس زوجها الذي يقضي سحابة يومه في المغالاة والمزايدة والحركية الهستيرية. وهكذا كان أبي يتصرف بطريقة خبيثة معها فيشغل بالها من بعيد ويشتري ليس ضميرها فقط، بل ورضاها أيضاً.

فلا يني هو يعرقلها بشراء هذه الآلات المختلفة الأنواع والأشكال، فيبعدها هكذا لا عن الخيانة الزوجية فقط بل حتى عن مفهومها كذلك. أما أمي فلا ترى أي مانع لأنها كانت تفتقر إلى شيء من الخيال حتى تفهم مراوغات زوجها، هي المرأة الساذجة والطيبة. فلم تكن تشك ولا تحتار من هذه التصرفات، فتبقى في غرفتها التي تعبق دائماً برائحة لذيذة وثقيلة في آن. وهي عبارة عن مزيج من الخضر الطازجة ورحيق الورد وشحم آلات الخياطة والأقمشة الجديدة والمشمش المجفف والتوت المتعفن. وكانت هذه الرائحة ملتصقة بأمي فلا يمكنني تصورها دونها. لكن، في واقع الأمر، يسود على كل هذه الروائح، أريج الكريب الصيني وخلاصة الورد الممرث التي كانت تستعملها لتعطر بشرتها.

كانت تقضي حياتها في يبس عودها وتجف بشرتها تحت تأثير العزلة والجو المنزلي المفعم بروائح معجون التوت الذي تطهيه العمة فاطمة ومعجون المشمش الذي تعتني به أحدى خالاتي التي كانت تشكو من عصاب مزمن، فتضع مصبر المشمش داخل جرات بربرية عتيقة، مشقوقة بعض الشيء ومثلومة نوعاً ما. وكانت أمي تضع

عطر الورد المنقع هذا داخل قارورة مفلطحة الشكل، زرقاء اللون، ثمينة القيمة كان قد أهداها لها زوجها. وفيما بعد استحوذ أخي الأكبر على هذه الحوجلة واستعملها كقارورة ويسكي كانت لا تفارق جيب سرواله الخلفي.

وتذكرني هذه الروائح والعطور العائلية بروائح وعطور تيميمون!

أما صرّاء فقد أهملتني تماماً منذ أن تعرفت على صاحبها الزنجي هذا، مثلما لم يفعل أبداً كمال رايس ولا حتى هنري كوهين. وكانا صديقين حميمين أثناء سن المراهقة والشباب. فكانا آنذاك لا يفارقاني أبداً، وكان كمال رايس أرهفنا. فجاء قليل الكلام، رائع الجمال بعينيه البنفسجية اللون التي تذكرني بعيني صرّاء. وكان الصبي إنساناً حساساً فتمتلىء عيناه دموعاً لأبسط سبب، وهو هكذا دائماً على وشك البكاء.

كان كمال رايس يحاول إخفاء رهافته النفسية فيتصنع الصبر واللامبالاة والاستهزاء، لكنه في الحقيقة كثير القلق والكرب والكآبة. وقد لقبناه بكمال الدارة القصيرة لأنه كان رائع الجمال، طويل القامة، جميل الهندام، كثير الحس والحساسية وعبقرياً في مادة الرياضيات، فيحل المعادلات من الصنف الثالث بسرعة فائقة ويحفظ عن ظهر قلب كل رباعيات عمر الخيام. فتعشقه البنات وتسقطن في شراكه بسرعة فائقة، كذلك.

كان عشاقاً، بدالاً. أو الأحرى، كانت البنات

تتراكضن وراءه وتحبه حباً جنونياً. وكان ذلك مصير جان كوهين. لكن أنا وأخاها كُنّا له بالمرصاد فلا نتركه يمد يده نحوها. وهو في الحقيقة لا يحب سوى مومسات أكبر ماخور عرفته قسنطينة.

كان لا يفارقنا إذن ولا يقدر على تركنا ولو بضع ثوان، فيتعثر ويتلعثم من فرط عدم مهارته وخجله واحتشامه. فكنا نصاحبه في كل مكان وزمان، فنزور معه دور البغاء حيث كان يقضي سهراته فيها كل يوم. وكان يحمل حول عنقه «كرافتات» لماعة الألوان فنضحك عليه ونسخر منه.

فيقول له هنري كوهين: «لا لا يا كمال رايس أعوذ بالله من ذوقك... هذا موش ذوق... هذه كارثة... لا تعرف كيف تختار ربطة العنق... لا عندك ذوق ولا نوق...!».

فيرد عليه كمال رايس: «واش بها الكرافاتة ديالي؟... راهي من حرير الصين الصافي... الخام، يا سيدي! وصباطي؟.. واش رأيك فيه؟ مصنوع في إيطاليا... حشيتها لك آه... cosinus, sinus, Anus... خوذ راحتك وخمم مليح قبل ما تحل فمك... راك غاير مني.. أنت غيار!».

فيقول هنري كوهين: «والو صباطك... معوج وقبيح.. لا ذوق ولا نوق... صباط شارلو... تضحك به كل الدنيا... تحب الفرنسيس يضحكو عليك؟ لو كان

يشوفك أستاذ اللاتينية يموت بالضحك.. هذاك يعرف يلبس وعندو ذوق وسوق!.. هيا، ترجملي هذا النص يا كمال رايس:

igitur quarto denique die haud longe ab oppido Cirta undique simul speculatores siti sese ostendunt; quare hostis adsse intelligitur. Ita lugurtham spes frustrata...!

ويرد عليه كمال رايس: «ما نترجمش! واش به صباطي؟ راك غاير مني... لقد أخذتك الغيرة: ولما علم موسى بن نصير بفوز طارق بن زياد، حركته الغيرة، وإنت زادة حركتك الغيرة يا حبيبي... على خاطر الغيرة هي محرك التاريخ ومحرك العلاقات البشرية برمتها! بصح ما تخافش على أختك، أنا انصون عرضها...

أختك كما أختي...».

VI

أسقط من جديد في كوارث البشر ومصيرهم المهول، المسكين. فأصبح أنا بدوري إنساناً تحركه الغيرة. أنا الذي لم أعرف لهذا الإحساس معنى مدة أربعين سنة وها قد يحين الوقت وأسقط في فخ هذه الأمور الخسيسة من غيرة وحسد وكره. أغار من ذلك الشاب الزنجي العازف على آلة الأمزاد لأنه استحوذ على صرّاء. فأفوت هذه الفرصة لجلب أنظار صرّاء، أنا الشخص المسكين، السكير، القبيح الوجه، وكأنه مبعج! جاءني الغثيان مرة أخرى. سئمت من نفسي وقد سقطت في حب صرّاء وليس لي أي حظ في افتتانها والتحصيل عليها، وذلك بعد أن عشت بعيداً عن هذه المشاكل العاطفية والقلاقل الجنسية.

«عيني بترف يا حبة عيني... علاش تبسني في عيني والبوسة من عندك حلوة... لو كان نهزّ الشفر يطيح المطر...»

تدور وتيرة هذه المقاطع والأغاني المصرية والجزائرية القديمة في ذهني وتحزه حزاً، فتعود الكرة وتمقطني

وتلوّعني، فتتشنج أعصابي. أكره الحنين لأنه شيء متلبق يتسبب في أوجاع المعدة. أحاول أن أتخلص من هذه الأزمات القديمة لكن دون جدوى أو نتيجة. تعيد المقاطع نفسها بطريقة متكررة، حنينية، متلوعة، متباكية. أموت شوقاً. أموت كرباً. أموت حنيناً. أموت إرهاقاً. أموت غيرة. أموت حسداً. فأصل إلى ذروة الألم. لا أطيق أكثر!

ثم من جديد تدور اللازمات في طيات مخي المسعور كما كانت تدور ترتيلات الآيات القرآنية في عهد الكتاب وعهد الطفولة البريئة. كما كانت تدور في ذهني مقاطع الأغاني الأندلسية الرائعة في المقاهي الشعبية، في عهد المراهقة. تلك المقاهي العتيقة التي كانت تنز برائحة الشاي المنعنع والقهوة التركية. فتملأ هذه الذكريات الصوتية فمي مثلما يمتلىء فم الميت بالتراب:

إثنا عشر كرواتياً يذبحون بطريقة وحشية بالقرب من مدينة المدية...

... فأبقى مذهولاً بعد قراءة هذا العنوان المنتشر على إحدى الصحف اليومية. أصمد. أرفض أن يطغى عليَّ الخوف ويسيطر عليَّ الذعر. أحاول نسيان المقاطع الغنائية القديمة وعناوين الصحف المملوءة بعمليات الإرهاب المتوحشة، وقد لاحظت أن صرّاء ترفض قراءتها.

لكن رغم كل محاولتي، أفشل فشلاً ذريعاً في محو هذه الملزمات، فيختلط الحابل بالنابل وأبقى هكذا أياماً بأكملها أتصارع مع الماضي حيث طفولتي تهشمت

وتضررت، فتنز يدايا عرقاً دبقاً وأتيه في هواجسي وإحساسي ووسواسي.

وأمام هذا الحب المستحيل الذي نزل عليَّ فجأة كالصاعقة وكالكارثة وأنا في سن متقدمة، شغلني هوس بتر ذكري، فأتخلص منه مرة واحدة وأرتاح نهائياً، وهو مقر غثياني ونفوري واشمئزازي، وقد تَمَكنت مني هذه الفكرة بعد أن شتمتني إحدى النساء ذات يوم لأنها فهمت أنني غير قادر على ممارسة الجنس وقد مرَّ على هذه الحادثة أكثر من عشر سنوات. كانت الصدمة عنيفة واستلهمني هذا الهاجس ولم أفكر فيه أبداً من ذي قبل.

كان أخي الأكبر يحب الأغاني القديمة حباً مفرطاً، رغم سذاجتها وبساطتها. فلم يكن يفوت أبداً فرصة الاستماع إليها. فيقبع ماكثاً في الطابق الأرضي من «مقهى الجزائر» وهو ملك لأبي. وكان والدي ينظم حفلات ساهرة فوق سطح المقهى أثناء ليالي رمضان، فتأتي أشهر المغنيات وتغني للجمهور العريض الذي يكتظ به المكان. أما أبي فكان يمنع على أخي الصعود إلى السطح والاستماع إلى مثل هذه الأغاني، لأنه يعلم أن إحدى المغنيات متعلقة به. فيبقى هو في الطابق الأرضي، يسترق السمع للتنصّت على صوت حبيبته وأغانيها، فيبكي تحت تأثير الوسكي الذي يحمله في قارورة مفلطحة الشكل وزرقاء اللون وقد اختلسها من أمي التي كانت تضع فيها عطرها من ريحان الورد.

كان أبي يغار من ابنه الأكبر وهو على العلم بالعلاقة العاطفية التي تربطه بالمغنية الشابة وكانت رائعة الجمال، نحاسية الصوت وقادرة على تقليد أم كلثوم تقليداً كاملاً. يغار أبي إذن من ابنه الأكبر، هو الذي كان يقضي حياته في التجوال والتسفار عبر العالم بأسرة، فيبعث لنا من كل عاصمة يزورها بطاقة بريدية لا تحمل إلا اسم المكان والتاريخ وإمضاءه. ليس إلا! ذلك أن والدي كان غير قادر على الإدلاء بعواطفه أو على كتابة أي حرف لإعطائنا بعض التفاصيل عن حنانه وحبه. كانت هذه هي طريقته، فلا يريد أن يقول أو يكتب أكثر مما قرره، فأصبح هذا تقليداً عندنا. أي اسم المكان والتاريخ والإمضاء، فقط.

منع أبي على ابنه حضور هذه الحفلات الرمضانية منعاً مطلقاً، إذن! فيتركه يسكر ـ خلسة ـ ويبكي ويموت شوقاً في حب المغنية الشابة الجميلة وكانت تبعث له من خلال طريقة الغناء، بكلمات سرية لا يفهمها إلا هو، مفعمة بالحب والعشق والشهوة الجنسية: «كان أنهز الشفر يطيح المطر...» وكانت هذه العلاقة مستحيلة في الحقيقة لأن أبي كان يرفضها ويغار منها ولأن المسافة الاجتماعية بين أخي الأكبر وهذه الفتاة، كانت شاسعة ومتناقضة تناقضاً صارماً.

فبالنسبة لأبي كانت المغنية المراهقة، مغنية عادية ذات أخلاق غير لائقة بمستواه الاجتماعي، خاصة وأن ابنه كان طالباً متفوقاً في إحدى المدارس العليا وهو سيخلفه لا

محالة في يوم من الأيام على رأس أعماله التجارية الكثيرة والمربحة. لكن المغنية لا يهمها مثل هذه الحجج فتغني له سراً وتبعث له رسائل ملتهبة بالغرام والشبق من خلال شفرة رمزية لا يفهمها أحد غيرهما. وكانت القاعة حيث تدور الحفلات الغنائية هذه تعبق برائحة الياسمين وتفوح بفوحان المستمعين وكلهم رجال يأتون إلى هذا المحل للاستمتاع بجمال المغنيات وعريهن الخفيف ورقصاتهن الشبقية على موال الرقص الشرقي، رغم أن الفترة كانت فترة شهر رمضان وشهر الصيام! فيطلقون اللجام لحرمانهم وشهواتهم الشبقية.

وكانت المغنية تردد وتكرر نفس اللازمات عدة ساعات على غرار أم كلثوم فيجن جنون أخي ويشرب الوسكي حتى الثمل وكأنه يريد بتصرفه هذا الانتقام من أبيه، ذلك الإقطاعي الكبير والثري القدير والمنافق الرهيب وقد اشتهر في المدينة بكثرة عشيقاته وعربدته ومجونه، إلى حد أنه كان يغير حتى من ابنه الأكبر ويخاف أن يزاحمه في ميدانه بالذات، أي ميدان الفجور والمجون!

فرغم عشيقاته العديدات وزوجاته الأربع المومسات التي تعود على إخراجهن من دور الدعارة وتنصيبهن في منازل فخمة. ورغم النساء الأجنبيات اللواتي يتعرف عليهن في الخارج، فرغم كل هذا فهو يغار من كل ذكر وكل رجل يزاحمه هذه القدرة أو يشاطره إياها.

لكن في الواقع كان الرجل مريضاً بالتمظهر والتبجح

والتغطرس ولا يهتم بهذه العلاقات النسوية الكثيرة إلا لإبراز قدراته الجنسية وإمكانياته المالية. ذلك أنه كان يعيش قصة غرام نزيهة وعميقة وأصيلة مع امرأة فرنسية من عائلة معمرين أثرياء. وكان الأمر يتعلق بالآنسة Rocher التي كانت تعمل كطبيبة في قسم المسلولين التابع لمستشفى Charles Nicole بقسنطينة.

أما أنا فلم أكن أتخبط في وحل مستنقع هذه الحياة منذ طفولتي. وها أنذا الآن أسقط في حب فتاة صغيرة، فقررت بطريقة جنونية وانتحارية أنها هي الوحيدة القادرة على إخراجي من عقدي الكثيرة وأمراضي النفسية العديدة وعاهاتي الشذوذية المختلفة. وكنت أعول كثيراً على قوة شخصيتها وجمال عينيها الرائعتين وطول جفنيها وهفافة جسمها، الذي يكاد أن يكون رجولي الشكل، وصدرها المسطح وشعرها القصير و«جيناتها» المتفسخة الألوان و«بسكاتاتها» الليلكية اللون، وعماماتها الصحراوية.

كانت صرّاء تحوم وتدور في هذه الصحراء التي لا يمكن لأي إنسان ترويضها أو السيطرة عليها، وكأنها ولدت فيها، تلك الصحراء حيث الأسربة تتعاقب الأسربة. وكانت مجموعة السوّاح التي كنت أقودها عبر الفيافي الرملية تعيش بطريقة ذاتية وقد التفت حول نجاتها وحول هلاكها، كذلك. أما صرّاء، فكانت منطوية على نفسها، تنظر إلى الصحراء وطبيعتها وبنيانها ونباتها، بنظرة مبهورة، كالمسحورة. وبدت وكأنها ضجرت من عشيقها وملته وهو

لا زال يجاملها ويلاطفها ويداعبها. ومن حين لآخر تأخذ السواح نوبة من الهيستيريا وذلك تحت تأثير روائع الصحراء وانتحاءاتها وجاذبيتها المقلقة والمهولة والهلعة.

كان الحسد يتآكل أطرافي وأحشائي وعقلي، لكنّني أحاول جاهداً نفسي حتى لا يظهر شيء من كل ما أعانيه من آلام وهموم وأوجاع. ومن حين إلى آخر تتلاقى نظرتي بنظرة صرّاء على صفيحة المرآة الارتدادية، فتأتي قاسية، فارغة من كل حنان أو عطف، متعجرفة وباردة برودة الموت. لا شيء! لا وجود! العدم! وقد مر على بداية هذه الحالة التي أعاني منها أكثر من أسبوع وأنا على مضض وفي عذاب. فأغرق في السكر والخيبة والكرب، فتنزّا يدايا عرقاً دبقاً أكثر فأكثر. لم أعد أملك تلك الموهبة التي جعلت مني دليلاً ماهراً ومطوفاً حاذقاً، فأقوم بعملي بطريقة روتينية وعادية جداً. فتعاودني هواجس الأعزب القديمة بغثياناتها وتقززاتها، فأكره صرّاء كرهاً مبرحاً وأنقصُ من جسمها وجمالها. أما يدايا فيزداد عرقهما الدبق، يوماً بعد يوم.

وكنت أثناء الرحلة لا أني التقاط الصور لصرّاء وكأنني أريد هكذا قبضها وتقييدها وترسيخها على فيلم الآلة. ولعل في هذا المعنى إرادة غير واعية في قتلها والتخلص منها رمزياً.

لقد قررت مكافحة هذا الشعور الجارف الذي يجلبني نحو صرّاء وتوقيف هذا النزيف العاطفي نهائياً. لقد شخت

تحت وطأة هذا العشق. أكثر مما كنت عليه وتقلص جسمي أكثر فأكثر. أردت أن أخرج من هذه المطبة الوعرة حيث سقطت فيها وأنا في الأربعين من عمري، فاشتهيت امرأة لأول مرة في حياتي وأحببتها حباً جنونياً، لا أمل فيه ولا خير يرتقب منه. لقد أحببت صرّاء منذ اليوم الأول، من أول وهلة وكأن شيئاً مغناطيسياً وفلكياً في نفس الوقت يجذبني نحوها بقوة وعنف.

منذ أربعين سنة وأنا أجهل كل هذه الإمعاءات العاطفية والترهات الجنسية وقد تحملت بهدوء وببعض الالتذاذ سخرية الرجال القذرة وتهكماتهم الفاحشة وكلامهم الفضفاض، كما تحملت ردود أفعال النساء العنيفة لأنني رفضت مضاجعتهن، رغم أنفي ورغم نفسي، فتترك هذه الردود بصمات مؤلمة في روحي. ألم تشتمني إحداهن، قائلة: «لماذا لا تبتر أيرك وتتخلص منه؟ فما فائدته يا ترى؟». شربت بعدها زجاجتين من الفودكا وثملت حتى أنني حاولت عصر عنقيهما، دون جدوى طبعاً. وفي اليوم نفسه اشتريت صندوقاً من قنينات الفودكا وبدأت أسكر وأسكر، فدامت سكرتي أسبوعاً كاملاً دون أن أعي شيئاً ولا أرى شخصاً ولا أستفيق ولو ثانية واحدة. ومنذ تلك الفترة تغير مزاجي وتعقدت وتذنبت، فازداد خوفي وهلعي ونفوري.

فهكذا كنت أبحث عن كل الفرص حتى أهلك وأفنى. فاستعملت الطائرات المطاردة وقمت بقفزات بهلوانية على

متنها، لعلني أسقط على الأرض وأتهشم إرباً إرباً. لكن دون جدوى! كما اخترت وجربت كل المغامرات الخطيرة وأنا أشتغل كدليل في الصحراء فسلكت الدروب الوعرة أملاً في التيه والتلاف والضياع في قعر الصحراء. ولم يسعفني الحظ في محاولتي هذه، كذلك!

لكنها تساعدني على التنفيس وتفريغ نفسي من كل عقدها وشحنتها السلبية وهواجس بتر قضيبي هذه توسوس في بالي وتنخر نخاعي الشوكي. الصحراء مخيفة بمخاطرها العديدة وفضائها اللامتناهي وكثبانها المنتقلة وهضابها الرَملّيّة وهي تتساقط من علو رهيب يزيد عن الثلاثة آلاف متر، تعبرها الوديان الضيقة والعميقة حيث تنبثق منها بحيرات ملفوفة بنباتات رائعة.

الصحراء هي المكان الذي يتفجر فيه الكون وتتكون فيه الفوضى. ولهذا الغرض قررت أن أمتهنه وأعمل دليلاً فيه. فأخترق فضاءاته وهضابه ووديانه ودروبه المرملة وجباله المخيفة، قمرية الصبغة، دائماً في انتقال وترحال، حتى إذا ما هدأت الأمور والعوامل الطبيعية هذه، فتنبثق فجأة واحة من الواحات وكأنها خارجة من العدم.

هنا تتأصل وحشية الكون وقدرته الخارقة على إهاجة كل المغامرين الذين يقبلون على الذهاب إلى أبعد الأبعاد، تحت سطوة الخوف والذعر أو السكينة والهدوء عندما تتراءى لهم، بعد أيام من الصحراء القاحلة والصمت والعدم، بحيرة صغيرة أو «قلتة» غريبة حيث ينمو شجر التين

والكروم والدفلة والنخيل المنتج لأحسن نوع من التمور في البلاد. أو يتراءى لهم سفح جبل مغطى برسوم صخرية رائعة الجمال ويعود عهدها إلى ما قبل التاريخ.

وكل هذه الانطباعات الصحراوية لا تني تتراكم في رأسي منذ عشر سنوات تقريباً، فتساعدني على العيش وتبعث فيَّ الأمل. ذلك أنني أموت ابتهاجاً أمام أي منظر صحراوي لأن الصحراء هي أحسن مكان يمكن أن يموت فيه الإنسان بلا ندم، لأن كل العوالم المتواجدة فيه تضمحل بسرعة فائقة، كما تبرز فيه كل النقائص الإنسانية والعاهات في رمشة عين. فكل هذه المعطيات هي التي تكون في ذاتها صحراء أحملها في تلافيف ذهني فترتسم عليها بأحجامها المتموجة وأجزائها المتهلهلة وأشكالها المستديرة وألوانها المتغيرة وأضوائها المتقلبة. فيعطي كل هذا انطباعاً مبهماً، مرتجلاً وهشاً في نفس الوقت.

وهنا يأخذ موت أخي الأكبر أبعاده الرهيبة تزيد من حجمه جبال الهوڤار الشامخة والمتكسرة والمتغيرة تغييراً دائماً، إلى حد الانفساخ فتغمرني نشوة قد تصل إلى ذروتها أحياناً. فأبذل كل جهدي لأشعر بقساوة الصحراء وألمها ووُجعها، حتى الابتهال التصوفي والجذبة الطقوسية. فلا أني أذرع الفضاء كله وأصعد الجبال المتكلسة، مترقباً هناك طلوع الشمس وغروبها حتى أمحي كل هواجسي وشواذي وعاهاتي. فتنمحي الأشكال وتضمحل الأحجام وتنفلت الأوهام.

كم من شفق وكم من نسق شاهدت من إحدى نوافذ المصلى الصغير الذي شيده الأب دي فوكولت على قمة الأسيكريم في منطقة الهقار، دون أن أشعر بأي حسّ ديني، لكنني أشعر فقط باحساس استيتيكي رائع. أما الآن وأنا في قلق ومضض من جراء هذا الحب الجارف والمستحيل، أطلق العنان لغضبي فأجابه صرّاء واتهمها بالتغنج وفرط الدلال، فأصفها بالأنثى الملتهبة شبقيتها والتي تمضي جل وقتها في إيقاظ شهوة الرجال. فتحملق فيَ الفتاة وتصفعني وعيناها ممتلأتان غضباً وحقداً وسخرية واحتقاراً. ومن فرط الغيرة أتحول إلى إنسان عنصري وقد فقدت بصيرتي من حدة العشق والهوان، أنا الذي تجاوزت الأربعين عاماً.

وأخذني مس من الجنون فرحت أزرع الفتنة بين صرّاء وعشيقها دون أي نتيجة، فأفشل فشلاً ذريعاً وأنبطح على فراشي مغلوباً، مقهوراً، قذراً، دبقاً، سكراناً حتى النخاع.

وفي بعض الحالات تنتابني غريزة القتل فأريد أن أقتل صرّاء وعندما استرجع عقلي وهدوئي، أسرع فأذهب إلى إحدى البحيرات القريبة من تيميمون فأسبح فيها وأغوص في مياهها الهائجة وأبرد هكذا هلعي وأعصابي، فأغتسل وأحاول محو كل آثار هذا الحب الجنوني؛ ورغم كل هذه المحاولات يتراءى لي عري صرّاء فأكاد أموت شبقاً وخجلاً. فاستغرب وجود هذه الشهوة وكأنها نابعة من أزمنة ما قبل التاريخ، بعد أن ماتت فيَّ منذ الطفولة، فتبرز هكذا

من جديد بعد سنوات من الشذوذ والحرمان والعزلة والكبت.

لكن سرعان ما التجىء إلى ولوعي بالشرب لأن السكر وحده هو القادر على ضخ استيهاماتي وكوابيسي وغريزة بتر قضيبي هذه التي لا تتوقف عن الدوران في ذهني.

وبعد ليلة عسيرة من الأرق والنعاس المضطرب أعي بهزلية الموقف فيتفتت جسمي ويتقوقع ويتكزز، فأشعر بأن الموت يقترب مني رويداً رويداً، لا محالة! أخجل من عراكي وتشاجري مع صرّاء، فأجد نفسي خسيسة وتافهة وتصرفاتي مَرَضية وغلمية. فينصبّ عندها الندم عليّ، فأموت حسرة. أما صرّاء، فكانت تفهم بسرعة البرق العذاب والتناقضات التي أعيشها من أجلها، فتفرح لذلك ويتحول أزرق عينيها إلى البنفسجي، وهي في قمة السعادة والابتهاج وكان ردّ فعلها هذا عبارة عن غريزتها الشاذة والمنحرفة والفاحشة! ذلك أنها تعلم علم اليقين أنها امرأة وهبتها الطبيعة جمالاً رائعاً وزادها الرجال والعباد دلالاً على دلالها، فتحولت إلى أنثى رهيبة تتلاعب بالرجال وتفرط في الغرور والتغنج.

وتمتلىء الصحراء فجأة بضوء مستحمر ومخضب ببعض الصفرة فيتلون الجو بأروع الألوان وتهفت الدنيا فابتهج ابتهاجاً كبيراً فيتوقف نزيف آلامي وأرفض أن يخثر دمي في رأسي وتتقطع أمعائي تحت تأثير العذاب.

فاغتنم فرصة هذه الراحة النفسية وآخذ بمجموعة السواح إلى «قلتة» رائعة الجمال وصافية المياه، فيعومون

فيها ساعات طويلة ويمرحون ويعبثون كالأطفال الصغار. أما صرّاء فكانت تغمرها البهجة وتنتابها قشعريرة هائلة تترك آثاراً رائعة على بشرتها الكامدة، فتحت سطوة هيجان جسمها وغليان الألوان حيث يسيطر لون الكثبان الأحمر على الألوان الأخرى. تغتنم صرّاء الفرصة وتزيد من عندياتها، فتتفنن في أنانيتها وعنجهيتها وتغنجها ولا تبالي حتى بوجودي. أما عشيقها المسكين فأصبح حذراً بالنسبة لها ومشكاكاً بالنسبة إلي.

ومن جديد استأنف جولتي عبر الصحراء وأقود حافلتي «شطط» المملوءة بالسواح، صامتاً، عبوساً، قمطريراً. فيسود الحافلة جو مكهرب وخانق، تفرح له صرّاء وتسعد به. فلا يطرأ أي شيء على هذا الروتين المقلق ما عدا وصول بعض قوافل الجمال الآتية من حين لآخر إلى إحدى البحيرات لتشرب منها وتغتسل فيها. أما الجمال فتدخل وسط البحيرات أو «القلتات» وهي، على عادتها، محتفظة بذلك المنظر المتكبر والمتعجرف، حتى لو كانت فرحة ومرحة.

فأعيد الكرة وأشتهي مرة أخرى صرّاء إلى حد الصراخ، أثناء هذه الرحلات الطويلة والمملة. فتحاول هي آنذاك اجتلاب نظري على سطح المرآة الارتدادية فتتفحص فيه وتتفصحه بشراسة وخبث فتحاول إهانتي أكثر واحتقاري أكثر واضطهادي كذلك! لكن انتصارها المنتشر على وجهها يكسوها بمسحة قبيحة. كانت صاحبة أطوار وأدوار فتبالغ

في تلاعبها. فهمت عندئذ أنها لا تحمل أي شعور إزاء عشيقها، الموسيقي الزنجي، لكنها تتفانى في متاهات الإغواء والإغراء والإظلال فيمتعها هذا النوع من اللعب ويملأها زهواً ونشوة.

تعود صرّاء إلى التمويه والتظاهر في كل شيء وفي أتفه الأمور. فكانت تتصنّع الاستماع إلى تصريحات عشيقها من حين لآخر دونما اكتراث ولا اهتمام. فكانا يتشاجران من حين لآخر وأنا بالمرصاد لهما، أتفرس فيهما وأتفرج عليهما من خلال المرآة لأنهما كانا جالسين وراء مقعد السياقة، مباشرة. وهكذا اجبرتني صرّاء على أن أتحول إلى إنسان متلصص.

وأجبرني هذا الجو الثقيل والمثقل بالخلفيات والنفاق والتلاعب بمشاعر الناس وألبابهم، على أن أغوص في عالم مرضي لم أكن أعرفه من ذي قبل. وقد اكتشفته أثناء هذه الرحلة عبر الصحراء وأنا عاشق، فيحولني حبي هذا المسكين واليائس إلى إنسان مشاكس، لأنني وصلت إلى أوج المأساة وإلى قمة الانحدار نحو التهلكة. لكن لم يلاحظ أحد من السواح المشاكل التي كنت أتخبط فيها ذلك أنني نظرت إلى اكتشاف الحب وأنا في هذه السن المتقدمة، كشذاذ لا يطاق.

فما كان مني إلا مواصلة المسيرة وقيادة الحافلة من خلال الدروب الرملية على وتيرة مصيري الملعون وقد

أهملته في الحانات والمغامرات والشطحات الجنونية وجعلت بينه وبين الموت كل هذه المسافات الصحراوية الوعرة والعوائق العاطفية المزرية، رغم عدم ترك جفينات السيانور ولو ثانية واحدة، فكنت أحملها دائماً في جيبي، أينما ذهبت وأينما صددت. لكن كنت أعلم علم اليقين أنني غير قادر على الانتحار من كثر جبني فيأخذني الأمل الجارف كلما أوشكت على الهلاك وكلما اقتربت من الموت. فأترقب بعدها أن تنزل عليَّ معجزة من السماء!

كانت قيلولاتي دبقة وقذرة ومزعجة، فيتكرر نفس الكابوس أثناء نعاسي، فأتخيل أن مجموعات من الإرهابيين المتعصبين تلاحقني وتطاردني، كما أرى في منامي المومسات التي كان كمال رايس يمارس الجنس معهن في أكبر ماخور لمدينة قسنطينة وهن يجرين ورائي ويقذفنني بكلام بذيء ويرشقنني بضحكات هستيرية مقذعة.

كنت أشعر بالخزي يحز كرامتي وبالإهانة تضرس بشرتي وقد أتعبني تلاعبات صرّاء وأرهقتني الأحداث المؤلمة التي كانت تعيشها البلاد من جراء الإرهاب الإسلامي الرهيب والأعمى والمتوحش والضروس والمخرب:

الإرهابيون الإسلاميون يضرمون النار في مدرسة ابتدائية بمدينة البليدة. . .

فلا أقدر على استئناف الرحلة وأقف الحافلة بسرعة

تحت ظل إحدى المقابر البربرية التي يبهرني تقشفها وتريحني بساطتها ويسطو عليَّ جمالها، فاسترجع سكينتي وقيرورتي، فأقترب هكذا من الموت والعدم الهنيئين.

VII

وعند انتهاء كل رحلة، يتسلط الهلع على جو الحافلة. يشعر السواح بكيفية تلقائية وبقلق شديد. عندما نبدأ في النزوح نحو العاصمة يطفو على سحنة المسافرين نوع من الاستياء ممزوج بنوع من الفرح. أفهم ذلك من خلال ثرثراتهم. أما أنا فأشعر بلوعة تقبض على أحشائي وتتأصل فيها فتنز يدايا عرقاً غزيراً. لاحظت أن صرّاء وضعت على رأسها «شاشا» صحراوياً ناصع الاحمرار وكأنها تحاول هكذا إخفاء الذعر الذي غشى وجهها. تعودت على هذا الجو الغريب والمتناقض الذي يسيطر على الحافلة، عند العودة وهكذا منذ سنوات عديدة. وما أن نمر على اللافتة المكتوبة عليها تيميمون ـ المنيعة ـ الجزائر العاصمة، حتى يتسرب الارتباك داخل الحافلة وعند الناس. دائماً نفس الحالة التي تتكرر في كل رحلة أقوم بها إلى الصحراء. أشعر أنا أيضاً بنوع من الخلاص ممزوج بشيء من الاختناق، رغم أن الرحلة لم تنته بعد، إذ تبقى مسافة قدرها 1300 كيلومتر تفصلنا عن العاصمة. لكن يتوغل

الاستياء الممزوج بالارتياح. غريب هذا الإحساس! خاصة وأن المشاهد والآثار والواحات لم تنته بعد. ليلة البارحة حدثت صراء عن كاثيدرالية المنيعة وقد شيدها منذ قرن ونصف القسيس دي فوكولد في وسط الصحراء، فتظهر من بعيد وكأنها شبح ضخم وقد تخربت وأكل الدهر عليها وشرب. لا أزورها أبداً لأنه يوجد داخلها قلب هذا الفاتح الغاشم والخبيث وقد وضع في إناء من زجاج مملوء بالفرمول. ذلك أن هذا الضابط الذي فتح الصحراء أمام المستعمرين الفرنسيين نال فوزاً كبيراً في محاربة الطوارق، فغلبهم وأهانهم، وبعد بضع سنوات غير هذا القائد العسكري حياته وترك الجيش ودخل الكنيسة فأصبح قسيساً فيها. لكن الطوارق انتقموا لأنفسهم وقتلوه شر قتلة. لا أزور هذه الكاثيدرالية، إذن، وهي تجلب الكثير من السواح والمتبركين بروح هذا القسيس. يأتون من كل صوب لأن الأمور «المقبرية» والمأتمية تجذبهم بقوة.

لا يمكن لأي سائح تجنبها كما لا يمكن تجنب شعل الحقول النفطية. فهي دائماً تحترق ليلاً ونهاراً، فتشخص الصحراء بشواخصها. لكن صرّاء لا تهتم بها كثيراً، ذلك أنها لا زالت تحت تأثير دير النساك الموجود في منطقة بني عباس، وكأنه خارج من الرمال الزعفرانية اللون. في آخر الأمر، كانت صرّاء منبهرة إلى أقصى حد بقصر تيميمون وواحته، فخلفا فيها آثاراً عميقة وبصمات جمالية رائعة.

منذ أن سقطت في حب صرّاء لاحظت أن نظرتي تغيرت فأصبحت خبيثة ومنحرفة، فيها نوع من المكر

والكراهية. لم أكن لأملك مثل هذه النظرة من قبل، أبداً! أتأكد من ذلك من خلال سطح المرآة الارتدادية، فيتحقق انطباعي السيء عن نفسي. الحافلة تخرق الفضاء الآن فأزيد في سرعتها، فتنتهم الطريق المعبد بقوة وعنف، وكأنها ملت الدروب الصحراوية والرمال والصخور والكثبان. يدايا ترشحان عرقاً دبقاً، ثقيلاً وخاثراً. هذا يعني أن الخوف المتأصل في، يزداد كثافة. يؤلمني وجهي هذا وقد اكتسى شحنة العاشق المسكين، المبلي بلاء فاحشاً. أشعر بالقلق يمتعضني، يتسرب إلى كل مسامي. أكره هذه النظرة التي تلحظ وتتلصص بمكر. فهي حديثة العهد. لا أبداً! لم تكن لي هذه السحنة الكريهة من ذي قبل. داهمتني منذ أن أحببت صرّاء حباً جماً. أعترف أنني قبيح الوجه منذ الأبد، منذ البداية، لكن لم أملك أبداً هذه النظرة المداجة عندما أسترق النظرة في اتجاه صرّاء من خلال المرآة.

بانت لي مصقعة الوجه وكأنها ميتة رغم جمال وضخامة عمامتها ذات اللون الأحمر اللماع والبراق. نفس اللون الذي كان يلون ربطات عنق كمال رايس عندما كنا مراهقين!

وفجأة أدرك بوضوح كامل التشابه الصارخ بين صرّاء وكمال رايس أثناء فترة مراهقته! أدهشني هذا. لكليهما نفس الجسد الطويل قامته، نفس الوجه الرائع جماله والرائعة سماته وكأنها منحوتة نحتاً دقيقاً، نفس الأعين شكلاً ولوناً، ما بين الأزرق والبنفسجي، نفس الأشفار

الطويلة والمثنية على نفسها، نفس الهيئة الرجولية، نفس المشية المخلعة.

أدرك كذلك أن صرّاء هي ليم كمال رايس بالضبط! أختارُ لهذه الصدفة. كأن الصاعقة تنزل على رأسي... هل صرّاء تمثل النسخة الأنثوية لكمال رايس؟ لم أشعر أبداً بميل نحو كمال رايس عندما كنا مراهقين. أي بميل جنسي أو عاطفي! ولم أكن أملك آنذاك مثل هذه النظرة الخسيسة والمائلة التي تطفو على سحنات العشاق عادة. هل قد سقطت في مراهقتي رغم سني المتقدم؟ لم أتذكر أن علاقتنا كانت تعتريها أية شبهة. أتذكر فقط أن مري كوهين كان يمزح ويسخر مني نظراً للإعجاب الذي كنت أكن لكمال رايس. لكن لا شذوذ فيه ولا غبار عليه. كنت فقط مبهوراً بجماله وبذكائه المفرط لأنه كان يعرف كيف يحل المعادلات الجبرية من الصنف الثالث بسهولة وبسبع وعشرين طريقة، حسب ميزان عمر الخيام، كما كان يحفظ رباعياته عن ظهر قلب. فقط لهذه الأسباب البريئة، كنت أحترمه وأعجب به أيما إعجاب... فقط!

الآن فقد نظري هذه الصبغة الخبيثة، الماكرة. أنظر إلى وجهي على المرآة الإرتدادية فألاحظ أنه استرجع عفويته وصراحته. عدت إلى أصلي ومزاجي. لكن هذا الاكتشاف بالنسبة للصلة بين الصرّاء وكمال رايس، يسحقني ويمحقني. أكاد أنهمك في العدم. يأخذني الدوار.

لكن المفيد أنني فقدت تلك الطريقة الهجينة في النظر إلى العالم! استرجعت عفويتي.

صرّاء، من خلفي، تتقوقع الآن. تلتف كاملة داخل البرنس الوبري الذي استلفته مني في بداية الرحلة، وكأنها تلف جسمها داخل كفن. تنطوي صرّاء على نفسها. تنكبّ داخل مقعد الحافلة وكأنها تريد أن تغيب عن العالم وعن الكون وعن عشيقها المسكين وقد سقط في سبات عميق وفمه مفتوح على شدقيه.

وبانت لي صرّاء وكأنها مصقعة. تلوّن وجهها بلون كاب. وفجأة ظهرت وكأنها قبيحة الوجه. كالميتة، بالنسبة إلي، الآن.

كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).
ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).
الإنكار، 1984، (رواية).
الرَّعن، 1984، (رواية).
يوميات فلسطينية، (يوميات).
طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).
الإراثة، 1983، (رواية).
الحلزون العنيد، 1984، (رواية).
ضربة جزاء، 1985، (رواية).
التفكك، (رواية).
المرث، 1984، (رواية).
لقاح، 1983، (شعر).
يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).
معركة الزقاق، 1986، (رواية).
فوضى الأشياء، 1990، (رواية).
حقد الـ FIS، (مراسلات).
رسائل من الجزائر (بيان).
الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).
واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).
الانبهار، (رواية).

- صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار **(ANEP)** عام 2003.


المطبعة
الحديثة
IMAG
للفنون
المطبعية
Imprimerie Moderne des Arts graphiques

رشيد بوجدرة

«.. ندمت، للمرة الأولى، أنني عبرت على هامش النساء، على هامش حنانهن وأجسادهن ... وأنا في الأربعين من عمري، أشعر أنني عبرت على هامش الأهم، الأهم الآن، هو سارة».

ما الذي يجعل طياراً عسكرياً سابقاً، مدمناً على الكحول ومطروداً من الجيش، يقوم برحلة في الصحراء على متن باص قديم؟ ما الذي يجعل الصحراء، حيث تستقر واحة تميمون جزيرة للسلام وسط جزائر يهزها الإرهاب الأصولي، قادرة على أن توقظ حمى العشق لدى كائن ظل حتى الآن مرفوضاً؟

Maquette Badia Maïdat

N° ISBN 9961-756-02-9
N° Dépôt légal: 818-2002